

الإصلاح بالإسلام
(٨)

الدكتور
محمد زعمارة
المفكر الإسلامي

التعارف بين الحضارات والمراجعات العلمانية

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - القاهرة
القاهرة، مصر - ٢٣٨٧٤٧٠
تلف: ٢٣٩٠٢٧٤٦٠



دار الكتب المصرية

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة

الشئون الفنية

عمارة، محمد

التعارف بين الحضارات والمراجعات

العلمانية/ محمد عمارة.

القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠١١م.

٧٢ ص: ٢٠سم - (الإصلاح بالإسلام: ٨)

تدمك ٧ ٢٢٩ ٢٢٥ ٩٧٧

١- الإسلام والحضارة

أ- العنوان

٢١٤,٣٠١٢

ديوى

اسم الكتاب: التعارف بين الحضارات
والمراجعات العلمانية
الدكتور محمد عمارة
الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة.
٧٢ صفحة: ٢٠ × ١٤سم
رقم الإيداع: ٢٠١١/١٢٥٩٦
I.S.B.N الدولي ٩٧٧-225-329-7

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة.
غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا
الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه على
أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو
ميكانيكية، أو نقله بأي وسيلة أخرى، أو
تصويره، أو تسجيله على أي نحو، بدون أخذ
موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

All rights reserved to Wabhab Publisher.
No Part of this Publication may be reproduced,
stored in a retrieval system, or transmitted,
in any form or by any means, electronic,
mechanical, photocopying, recording
or otherwise, without the prior written
permission of the publisher.

فاتحة

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتَكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

● «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها»
[رواه الترمذى وابن ماجه].

● «الحكمة: الإصابة في غير النبوة» [فتح البارى على صحيح البخارى].

● «خليق بنا ألا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها» [الكندى (٢٦٠هـ - ٨٧٣م)].

- «إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك، سواء أكان مشاركا لنا في الملة أو غير مشارك، طالما كان صوابا» [ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ-١١٢٦-١١٩٨م)].
- «إن أبا العلم وأمه هو الدليل.. والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل» [جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤-١٣١٤هـ-١٨٣٨-١٨٩٧م)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

فى الرؤية الإسلامية للكون: الواحدة والأحدية - فقط - للذات الإلهية.. وكل من وما عدا الذات الإلهية يقوم على التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف..

وهذا التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، هو - فى الرؤية الإسلامية - قانون وسنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل، وليس مجرد أمر عارض، ولا جزئى ولا هو مجرد حق من الحقوق، يُمنح ويُمنع، وفقاً للظروف والملابسات.

وهذه التعددية، بسبب من أنها قائمة فى كون واحد، فإنها لا تعنى التشرذم الدائم، ولا القطيعة التامة، ولا الانفصال الحاد.. لأنها تمايز وتنوع فى كون واحد - طبيعى أو إنسانى -.. كما أنها مستعصية على الوحدة والاندماج والتماهى فى نموذج واحد، وإلا فقدت خاصية التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف.. إنها خاضعة - دائماً وأبداً - لقوانين علاقات «العموم والخصوص»، أى الانفاق فى صفات ومكونات.. والاختلاف فى صفات ومكونات أخرى.. وهذا هو «التعارف» بين مكونات هذا التنوع والاختلاف.

فالإنسان، الذى يعيش فى قبيلة أو شعب أو أمة، يتميز - كفرد - بخصوصيات تمثل بصمته الخاصة المميزة له عن سواه.. وهو - فى ذات

الوقت- يشترك مع الآخرين -في محيطه- في الصفات الجوامع التي تميز قبيلته أو شعبه أو أمته . . وكذلك الحال في علاقة الأمة بغيرها من الأمم . وعلاقة الحضارة بغيرها من الحضارات .

ولقد ساد هذا القانون -قانون الخصوص والعموم- في علاقات الحضارات بعضها ببعض على امتداد التاريخ . . فلم يحدث أن اندمجت وتماهت هذه الحضارات في حضارة واحدة، حتى في ظل مراحل الغزو والاحتلال والقهر، التي امتدت لقرون عديدة -كما حدث للشرق من قبل الإغريق والرومان . . ومن قبل الصليبيين . . ومن قبل الاستعمار الغربي الحديث .

ولم يحدث -أيضاً- أن قامت أسوار صينية مانعة من التعارف بين الحضارات، حتى في الأزمنة القديمة، التي لم تكن قد تطورت فيها وسائل التواصل والاتصال . . وإنما كان هناك -دائماً وأبداً- التفاعل، الذي يثمر التعارف . . والخصوصية، التي تثمر الحفاظ على التمايز والتعدد والاختلاف .

ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا القانون الذي حكم هذه العلاقات بين الأمم والشعوب والثقافات والحضارات في كثير من آياته الكريمة . . وكنموذج لها:

* في القوميات والأجناس: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢] .

* وفي الشرائع والمناهج: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وإذا كان التسابق -بين الفرقاء المتعددين- على طريق الخيرات والتقدم والتطور والصلاح والإصلاح -لا يمكن أن يتحقق في ظل الوحدة والاندماج والتماهي -التي ينتفى معها التعدد ووجود فرقاء متسابقين-، فإن هذا التسابق لا يمكن أن يتحقق إذا كانت هناك قطعة كبرى وعزلة تامة وأسوار مانعة من الالتقاء والتفاعل والأخذ والعطاء.. وهذه هي درجة «التعارف»، التي هي سبيل التعايش.. وأيضاً سبيل التسابق على طريق الخيرات والتقدم والصلاح والإصلاح.. إنها الغاية من التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف.. عبر عنها القرآن الكريم عندما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ولأن هذه هي الرؤية الإسلامية للكون -الطبيعي.. والإنساني.. والفكري.. بل والنباتي.. والحيواني- فلقد جاء التاريخ الحضاري للأمة الإسلامية مصداقاً وتطبيقاً لهذا القانون.. فعندما حررت الفتوحات الإسلامية الشرق من القهر الإغريقي/ الروماني -الذي دام عشرة قرون- من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦-٣٢٣ ق.م] -في القرن

الرابع قبل الميلاد- وحتى «هرقل» [٦١٠-٦٤١م]- فى القرن السابع للميلاد-. . عندما حررت هذه الفتوحات الإسلامية الشرق من هذه الهيمنة الاستعمارية الغربية، ودخل هذا الشرق -من «غانة»- غربا إلى «فرغانة» -شرقا-. . ومن «حوض نهر الفولجا» -شمالا- إلى جنوبى خط الاستواء- فى إطار الدولة الإسلامية، وجد المسلمون أنفسهم أمام صورة جامعة ومجسدة للتنوع الثقافى والحضارى الذى عرفته الإنسانية حتى ذلك التاريخ. . ولقد كان قانون «التعارف» بين الثقافات والحضارات-المعبر عن الرؤية الإسلامية للكون- هو الذى وضعه المسلمون فى الممارسة والتطبيق عندما تعاملوا مع هذا التنوع الحضارى الذى ورثوه. .

وإذا شئنا نماذج شاهدة -مجرد نماذج- على صدق هذه الرؤية. . وعلى التطبيق الخلاق لهذا القانون. . فإننا يمكن أن نقدم إشارات إلى هذا التعارف بين الحضارة الإسلامية البازغة، وبين الموارث الحضارية التى وجدها المسلمون فى بلاد الشرق التى دخلت فى إطار الإسلام.

-١-

إبان حكم عمر بن الخطاب [١٣- ٢٣هـ- ٦٣٤- ٦٤٤م]- رضى الله عنه- خرجت الدولة الإسلامية عن بساطتها وسداجتها، عندما امتدت حدودها- بعد إزالة هيمنة الفرس والروم -من مصر إلى فارس- عبر الشام والعراق-.

ولقد استشار عمر بن الخطاب أهل الشورى فى التعامل -الإدارى . .
والاقتصادى . . مع هذا الواقع الجديد . . فكان رأى البعض - ومنهم
عثمان بن عفان [٤٧ ق.هـ - ٣٥هـ - ٥٧٧ - ٦٥٦م] وعلى بن أبى
طالب [٢٣ ق.هـ - ٤٠هـ - ٦٠٠ - ٦٦١م] -الإبقاء على النظام
القائم . . لكن المتطلبات الجديدة للواقع الجديد، جعلت الخليفة يأخذ
بمشورة الذين رأوا فى الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية «تنظيمات»
للإدارة والجيش والاقتصاد، تتطلبها الصورة الجديدة للدولة الإسلامية
الكبرى . . ولقد تحدث الوليد بن هشام بن المغيرة -الذى تعرف على
واقع الحضارة الرومانية- محبذا التفاعل مع خبراتها فى «التنظيمات»
فقال لعمر بن الخطاب:

- «يا أمير المؤمنين، لقد جئتُ الشام، فرأيت ملوكها دونوا ديوانا وجندوا
جنودا، فدوّن ديوانا وجندّ جنودا - فأخذ - [عمر] - بقوله»^(١).

هكذا بدأ التعارف بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الرومانية فى
«التنظيمات» الإدارية والعسكرية والاقتصادية، منذ خروج هذه الحضارة
الإسلامية من نطاق الحجاز بشبه الجزيرة العربية.

* وبعد أن كانت دولة الخلافة -فى طور بساطتها وسذاجتها- توزع
مواردها القليلة على رعيّتها فور مجئ هذه الموارد -كما توزع الغنائم
على المقاتلين- غير المحترفين، الذين يعودون لحياتهم العادية بعد الفراغ
من القتال- . . اقتضى الواقع الجديد، الذى تطلب جيشا محترفا يحرس

(١) ابن سعد [الطبقات الكبرى] ج٢ ق١ ص ٢١٢، ٢١٦. طبعة دار التحرير- القاهرة.

الثغور الكثيرة - ومن ثم «ديوانا للعسكر»- وتطلب نظاما ماليا ينظم الإنفاق الدائم على احتياجات الدولة ومؤسساتها- اقتضى هذا الواقع الجديد التعرف على ما لدى الحضارات الأخرى من خبرات وتنظيمات فى هذه الميادين . . فأشار الذين خبروا تجارب الفرس فى هذه التنظيمات على عمر بن الخطاب . . وقال واحد منهم:

- «يا أمير المؤمنين، إنى قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديوانًا يعطون الناس عليه. فدوّن عمرُ الديوان»^(١).

* وفى تحديد النظام الضرائبى الذى تعتمدة الدولة الإسلامية -بعد أن دخلت فى إطارها الأودية الكبرى لأنهار الشرق -النيل . . ودجلة . . والفرات . . وبردى- تعرّف هذه الدولة- على عهد عمر بن الخطاب- على النظام الضرائبى الذى كان قد اختاره الملك الفارسى العادل «كسرى بن قباذ» (أنو شروان) (٥٣١ - ٥٧٨ م) . . وهو النظام الذى كان يسمى «وضائع كسرى» . . والقائم على «المساحة» - أى تحصيل نسبة معينة على المساحة المعينة من المحصول المعين - وليس نظام «المقاسمة» - الذى يأخذ نسبة مقررة من المحصول، بصرف النظر عن المساحة وعن جودة الإثمار أو عدم جودته. وعن هذا التعرف والتعارف والاستلهام يقول «الماوردى» [٣٦٤ - ٤٥٠ هـ - ٩٧٤ - ١٠٥٨ م]: «وجرى عمر بن الخطاب فى ذلك على ما استوقفه من رأى كسرى قباذ»^(٢).

(١) ابن سعد (الطبقات الكبرى). ج٢ ق١ ص ٢١٢، ٢١٦.

(٢) الماوردى [الأحكام السلطانية] ص ١٤٨، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م.

ولقد ظل هذا النظام الضرائبي -الذي أخذته الحضارة الإسلامية عن الحضارة الفارسية- قائماً حتى خلافة «المهدى العباسي» [١٥٨- ١٦٩هـ - ٧٧٥ - ٧٨٥م] (١).

هكذا تعارفت -وتعرّفت- الحضارة الإسلامية على التنظيمات التي كانت سائدة في حضارات الشرق يومئذ -الرومانية.. والفارسية-.. فأخذت منها ما رأته مناسباً من النظم الإدارية.. والعسكرية.. والاقتصادية.. جاعلة هذه «التنظيمات» آليات لتحقيق مقاصد الإسلام ومثله وقيمه التي جاءت بها الشريعة الإسلامية.. في ذات الوقت الذي حافظت فيه على خصوصياتها العقيدية والقيمية، فلم تأخذ بشيء من بضاعة الروم والفرس في هذه الميادين.. أي أنها قد طبقت -في التعارف الحضاري- قانون العموم والخصوص.. فاستلهمت المشترك الإنساني العام.. واحتفظت بما لها من خصوصيات.

وكما رفض المسلمون عقائد الفرس والروم وفلسفاتهم الدينية، رفضوا كذلك فلسفاتهم السياسية.. رفضوا ما لديهم من النظم الملكية الجبرية.. ومن الكسروية والقيصرية -التي تحكم بالحق الإلهي المعصوم.. ورفضوا -كذلك- النظم الطبقيّة المغلقة- التي كانت سائدة في نظمهم الاجتماعية.. وكذلك رفضوا التأييد والتقدّيس لنظم العبودية

(١) دكتور محمد ضياء الدين الريس [الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية] ص ٧٥، ١١٠- طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م.

والاسترقاق واختار المسلمون نظام الخلافة -الذى هو إبداع إسلامي- يستمد فيه الخليفة سلطانه من الأمة، التى تختاره، وتبايعه، وتراقبه، وتحاسبه، وتعزله عند الاقتضاء. . ولقد سأل عمر بن الخطاب خبيراً بنظم الحكم الفارسية والرومانية وفلسفاتها وموقعها من قيمة العدل -التي جاء بها الإسلام- فقال «لسلمان الفارسي» [٣٦هـ- ٦٥٦م]:

- أملك أنا أم خليفة؟

- فقال له سلمان: «إن أنت جئيتَ من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة. . فاستعبر عمر». . ورفض لقب الملك، الذى تتنافى فلسفة حكمه مع عدالة الإسلام وشوراه^(١).

-٢-

وغير التعرف والتعارف بين الحضارة الإسلامية وحضارات الروم والفرس فى «النظم والتنظيمات». . بدأ التعارف على العلوم الطبيعية - العلوم الدقيقة والمحايدة. . ذات الحقائق والقوانين الثابتة. . والتميزة عن العقائد والقيم والفلسفات والآداب والأيدولوجيات. . وهى التى سميت -فى تراثنا- بـ«علوم الصنعة». .

ولقد ارتاد الأمير الأموى «خالد بن يزيد» [٤٨- ٩٠هـ- ٦٦٨م- ٧٠٨م] ترجمة علوم الصنعة هذه، فأنقذ علوم مدرسة الإسكندرية-

(١) [الطبقات الكبرى] ج٣ ق ١ ص ٢٣١، ٢٢١.

التي تعرضت كتبها ومكتباتها ومدارسها ومجامعها وعلمائها وفلاسفتها لاضطهاد النصرانية المصرية قبل الفتح الإسلامي- . . صنع خالد بن يزيد -الذي تصدر قائمة الحكماء في الحضارة الإسلامية- ذلك الإنجاز وتلك الريادة، فكوّن «إمارة» للترجمة ولعلماء العلوم الطبيعية، مستقلة عن إمارة الدولة وسلطانها. .

ولقد بلغ شأن هذا الأمير -الحكيم- رائد الترجمة والإبداع في هذا الميدان والذي أجرى التجارب على تحلية مياه البحر، وتحويل مالحتها إلى عذب، إلى الحد الذي جعل عمر بن عبد العزيز [٦١- ١٠١هـ- ٦٨١- ٧٢٠م] يقول عنه -وكلاهما أموى-:

«ما ولدت أمية مثل خالد بن يزيد لا أستثنى من ذلك عثمان - [بن عفان]- ولا غيره!» ..

ولقد وصفه «ابن النديم» [٣٩٠هـ- ١٠٠٠م] -صاحب [الفهرست].. ومؤرخ العلوم والفنون- فقال:

«إنه كان فاضلا في نفسه، له همة، ومحبة للعلوم خطر بياله حب الصنعة (الكيمياء)، فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر، وقد تفصّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي. وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة»^(١).

(١) ابن النديم [الفهرست] ج١ ص ٢٤٢.

وقال عنه الجاحظ [١٦٣ - ٢٥٥هـ - ٧٨٠ - ٨٦٩م]:

«إنه أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء»^(١).

وعلى هذا الدرب سار الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي كان أول من عمم دراسة الطب في الحواضر الإسلامية، بعد أن كانت دراسته مقصورة على الإسكندرية وحدها.

حدث هذا التعارف على تراث الإغريق والرومان في العلوم الطبيعية -الدقيقة والمحيدة- في الوقت الذي رفض فيه المسلمون «غنوصية» الثقافة الهلينية.. وعقائد التثليث والصلب والكهانة التي طبعت الثقافة واللاهوت الكنسى في الامبراطورية الرومانية، كما رفضوا الآداب الإغريقية -وملاحمها- المليئة بالوثنية وصراعات آلهة اليونان.

-٣-

وفي الدولة العباسية -وخاصة إبان حكم الخليفة المأمون [١٩٨ - ٢١٨هـ - ٨١٣ - ٨٢٢م] -تعرفت الحضارة الإسلامية على قطاع من العلوم الإنسانية والاجتماعية، تمثل في الفلسفة الأرسطية على وجه الخصوص.. ولم يكن ذلك بهدف اتخاذها فلسفة للإسلام والحضارة الإسلامية، وإنما لاستخدام هذه العقلانية اليونانية سلاحاً يحارب به المسلمون «الغنوصية» و«الباطنية» اليونانية -غنوصية الأفلاطونية المحدثه-، التي سبق لها وأفسدت التوحيد النصرانى -«بالحلول والاتحاد»-.. ثم استدارت

(١) الجاحظ [البيان والتبيين] ج١ ص ١٧٨.

- لإفساد التوحيد الإسلامى . . فكانت ترجمة العقلانية الأرسطية -
المشائية- سلاحاً يونانياً للرد على الذين لا يؤمنون إلا بما هو يونانى!
[متغربة ذلك العصر]!!- . .

وبعبارة «ابن سينا» [٣٧٠-٤٢٨هـ- ٩٨٠-١٠٣٧م] -صاحب
الباع الطويل فى شرح وعرض هذه الفلسفة:

«لقد نزعت الهممة بنا إلى أن نجمع كلاماً فيما اختلف أهل البحث
فيه، لا نلتفت فيه لفت عصبية أو هوى أو عادة أو إلف. ولا نبالى من
مفارقة تظهر منا لما ألفه متعلمو كتب اليونانيين إلفاً عن غفلة وقلة فهم،
ولما سُمع منا فى كتب ألقناها للعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين،
الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم، ولم ينل رحمته سواهم . . مع الاعتراف
منا بفضل أفضل سلفهم . . ولقد أودعت هذا فى كتابى [الشفاء]
و[اللوحق] . . أما من أراد الفلسفة على ما هى عليه بالطبع وعلى ما يوجبه
الرأى الصريح الذى لا يراعى فيه جانب الشركاء فى الصناعة، ولا يُتقى فيه
من شق عصاهم ما يُتقى فى غيره، ولا سيما فى الأشياء التى هى الأغراض
الكبرى والغايات القصوى التى اعتبرناها وتعقبناها مئين من المرات، فعليه
بكتابى [الفلسفة المشرقية] . .»^(١).

(١) نلينو [محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية] -بحث منشور بكتاب دكتور عبد الرحمن
بدوى [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] ص ٢٧٧، ٢٧٨-٢٨٢ طبعة القاهرة
سنة ١٩٦٥.

ويؤكد على هذه الحقيقة - حقيقة أن تعرف المسلمين على الفلسفة اليونانية، وترجمتهم للعقلانية الأرسطية، إنما كانت «استعارة» سلاح يوناني للرد على الباطنية والغنوصية اليونانية، وليست لاتخاذها فلسفة للإسلام - إذ فلسفة الإسلام قد تبلورت في «علم التوحيد» - «علم الكلام» - «علم أصول الدين» - في النصف الثاني من القرن الهجري الأول - وقبل ترجمة الفلسفة اليونانية... يؤكد على هذه الحقيقة المستشرق الألماني «بكر - كارل هينرش» [١٨٧٦ - ١٩٣٩م]، فيقول:

«لقد كان الغنوص يحارب الإسلام دينياً وسياسياً، وفي هذا النضال استعان الإسلام بالفلسفة اليونانية، وعنى بإيجاد عالم من العلوم الدينية العقلية.. فكأن الإسلام الرسمي قد تحالف إذا مع التفكير اليوناني والفلسفة اليونانية ضد «الغنوص» الذي كان خليطاً من المذاهب القائمة على النظر والمنطق وعلى مذاهب الخلاص.. ومن هنا نستطيع أن نفسر حماسة الخليفة المأمون للعمل على ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين إلى العربية...»^(١).

- ٤ -

وغير التعارف مع الحضارات الفارسية والرومانية واليونانية.. كان تعارف الحضارة الإسلامية مع تراث الحضارة الهندية..

ونحن عندما نقرأ البيروني [٣٦٢ - ٤٤٠هـ - ٩٧٣ - ١٠٤٨م] - الذي يقول عنه المستشرق «سخاو» [١٨٤٥ - ١٩٣٠م]: «إنه أعظم عقلية

(١) بكر [وارث ووارث] - المصدر السابق - ص ٧-٩.

عرفها التاريخ» . . . ونعلم أنه عاش بالهند أربعين عامًا، تعلم فيها اللغة السنسكريتية، وعلدا من اللغات الهندية الأخرى . . . ودرس ديانات الهند وفلسفاتها بلغات أهلها . . . وكتب عن الحضارة الهندية أوثق وأشمل المصادر التي استوعبت تراث هذه الحضارة وإبداعاتها فى الفلك والرياضيات والهندسة والحساب والصيدلة والأعشاب . . . من مثل كتب [تاريخ الهند، أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مردولة] وكتاب [باتنجل] -الذى احتوى على «أكثر الأصول التى عليها مدار اعتقادات الهنود» . . . وكتاب [تاريخ الأمم الشرقية] . . . وغيرها- ندرك كيف كان البيرونى نموذجًا لتعارف الحضارة الإسلامية مع الحضارة الهندية . . . وكيف أثمر هذا التعارف -من خلال عبقرية البيرونى- فتوحات وإضافات فى تحقيق قياس محيط الأرض . . . واختراع كثير من الآلات الفلكية . . . ووضع العديد من الجداول الإحصائية وجداول المقارنة لتحديد مواقع الأجرام السماوية . . . ومعرفة زاوية محور الأرض، وأطوال البلدان وعروضها. وقياس طول السنة، وتحديد حركات القمر ومنازله وأحواله وشكل فلكه، وقياس بعده عن الأرض . . . واكتشاف «أن الأرض متحركة حركة الرحى على محورها» . . . واكتشاف «جاذبية السماء للأرض، وجاذبية الأرض لما عليها وما حولها، فالشئ إنما ينجذب إلى النطاق الذى يقع فيه، وإن كان هو ونطاقه منجذبين إلى السماء» . . . والإسهام فى وضع الأسس العلمية لميكانيك السوائل وتوازنها . . . وحساب الوزن النوعى لعدد من المعادن والأحجار . . . وبلورة عدد من

النظريات الهندسية، وأخرى في حساب المثلثات غير التي توصل إليها علماء اليونان.. مع إسهامات في الجيولوجيا.. والجغرافيا الرياضية.. والتأريخ للعقاير والأعشاب الهندية.

نعم.. كان البيروني «بعثة علمية» تعرفت على الحضارة الهندية، واستلهمت أفضل ما في تراثها.. مع التحفظ على ما للهند من خصوصيات في الفلسفات والديانات.. وذلك وفق قانون: استهام ما هو مشترك إنساني عام.. مع احترام ما لكل حضارة من خصوصيات.. أى التمييز -عبارة البيروني- بين «المقولات المقبولة والمرذولة»^(١).

-٥-

وجدير بالذكر أن هذا المذهب الإسلامي في «تعارف الحضارات»، لم يقف فقط عند ما أشرنا إليه من التمييز في موارث الحضارات التي تم التعارف عليها عند حدود استلهام العلوم الطبيعية والدقيقة والمحايدة -التي تمثل مشتركا إنسانيا عامًا، لا تتغير حقائقه وقوانينه بتغير الديانات والفلسفات- مع توظيف هذه العلوم الطبيعية- بعد تطويرها- في خدمة عقائد الإسلام ومقاصد شريعته.. وإنما نهض المسلمون- في هذا التعارف- بمهمة أخرى، هي النظر النقدي في حقائق هذه العلوم الطبيعية وقوانينها التي توصل إليها القدماء.. فلقد أبدع علماء الإسلام فن التأليف في «الشكوك والمراجعات» لكثير مما قرره القدماء من حقائق

(١) [الموسوعة العربية] المجلد الخامس - طبعة دمشق - سنة ٢٠٠٢ م.

وقوانين هذه العلوم، وذلك باستخدام «التجارب» التي برع فيها المسلمون، بعد إبداعهم للمنهج التجريبي، فكان التصحيح الإسلامي لكثير مما قرره علماء تلك الحضارات القديمة في ميادين تلك العلوم.

لقد انطلق العلماء المسلمون إلى اكتشاف المنهج التجريبي من اعتماد «مبدأ الشك» للوصول إلى «اليقين». . . ورفضوا التسليم بما سطره القدماء. . . وفي تقرير هذا «المبدأ» قال النظم - إبراهيم بن اسحق - [٢٢١هـ - ٨٣٦م]، وهو من أئمة المعتزلة الذين اشتغلوا بالعلوم الطبيعية والتجريبية: -

«إن أول شرط للمعرفة هو الشك»

وقرر حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥هـ - ١٠٥٨ - ١١١١م]، وهو من كبار أئمة الأشعرية - هذا المبدأ، فقال:

«من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر ففى العمى والضلال»

وعن هذا المبدأ عبر أبو علي الجبائي [٢٣٥ - ٣٠٤هـ - ٨٤٩ - ٩١٦م]، فقال: «إن الواجب الأول على الإنسان هو النظر».

أما الشيخ أبو هاشم الجبائي [٢٤٧ - ٣٢١هـ - ٨٦١ - ٩٣٣م] فقال:

«إن الواجب الأول على الإنسان هو الشك»^(١).

(١) دكتور على فهمي خشيم [الجبائيان أبو علي وأبو هاشم] ص ٣٣٣. طبعة ليبيا ١٩٦٨م.

ولقد فصل الجاحظ [١٦٣-٢٥٥هـ-٧٨٠-٨٦٩م]، في بيان هذا «المبدأ» حتى لقد اعتبر الشك- الموصل إلى اليقين- علما من العلوم التي يجب طلبها وتعلمها، فقال:

«.. فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له. وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف، ثم التثبيت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه، فلم يكن يقين قط حتي كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك^(١)».

وانطلاقا من هذا «المبدأ»- مبدأ النظر والشك- بحثا عن اليقين- تبلور في تراث الإسلام، الذي ارتبط بالتعارف مع الحضارات الأخرى، فن التأليف في «الشكوك» على ما كتبه القدماء.. وشاعت في هذه المؤلفات عبارات من مثل:

«لقد لاحظت»..

«أنا نفسي قد رأيت»..

«لا أستطيع أن أجاري أرسطوطاليس [٣٨٤-٣٢٢ق.م] في هذه النقطة»..

«.. لأننا، رغم إجلالنا لجالينوس [١٢٩-١٩٩م] فإن ما شاهدناه بملء أعيننا أقرب إلى التصديق»..

(١) الجاحظ [كتاب الحيوان] ج٦ ص ٣٥-٣٧ تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة-الثانية.

وفى إعلاء المنهاج التجريبي، وتحكيمة فى المنقول . . قال الطبيب
الغرناطى ابن الكاتب :

إن القاعدة التى يجب أن نطلق منها دائماً هى : أن برهاننا اقتبس عن
المنقول، عليه أن يخضع للتغيير حين يقف على النقيض الظاهر مما تشير
حواسنا إلى صدقه . . .» .

وقال الطبيب العربى المسلم ابن الخطيب [٧١٣-٧٧٥هـ-
١٣١٣-١٣٧٤م]:

«إن القاعدة التى يجب أن نستند إليها دائماً، هى : أن برهاننا تاماً أخذ
بطريق النقل، ينبغى أن يخضع للتعديل إذا ما أتخذ موقفاً مناقضاً مما يشير
إليه إدراكنا الحسى» .

وقال الطبيب وعالم النبات ابن البيطار [٦٤٦هـ-١٢٤٨م]:

«كل ما كتبه هنا نابع من تجربتى الشخصية، أو من تقارير أمثال هؤلاء المخالفين
الذين نعرف عنهم أنهم كتبوا ما وجدوه ثابتاً من خلال التجربة الخاصة..» .

ولقد بلغ الأمر بالجاحظ حد اعتباره الاشتغال بالتجارب العلمية التى
تكتشف أسرار الله فى الكون- الطبيعة والإنسان والحيوان- عبادة «يتفرغ
لها الشيوخ الجلّة والكهول العلية، حتى يختاروا النظر فيها على التسبيح
والتهليل، وقراءة القرآن، وطول الانتصاب فى الصلاة، وحتى يزعم أهلهم-
[التجريب]- أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل برواجتهاد..»^(١) .

(١) الجاحظ [كتاب الحيوان]. ج١ ص ٢١٦، ٢١٧ .

لأن هذا التجريب، الذى يسعى أهله لاكتشاف أسرار الله فى الكون، هو تنفيذ لفريضة النظر، وسبيل للخشية والخشوع لمودع هذه الأسرار فى هذا الوجود، وطريق لتسخير هذه الأسرار وقوانينها فى عمران هذا الكون على النحو الذى أمر به الله . .

ولقد اشتهرت فى هذا الميدان- ميدان «المراجعة النقدية التجريبية» لتراث القدماء- نماذج إسلامية كثيرة، منها -على سبيل المثال-:

● النقد الذى وجهه الطبيب عبد اللطيف البغدادى [٥٢٠-٦٢٨هـ ١١٢٦-١٢٣١م]، «جالينوس» [١٢٩-١٩٩م]- أبو الطب اليونانى- الذى قرر «أن الفك الأسفل للإنسان إنما يتكون من عظمتين مجتمعتين معا».

فجاء البغدادى، وأجرى التجارب العديدة لاختبار صدق هذه المقولة . . ووصل إلى خطئها . . وكتب يقول:

«.. إلا أننا شاهدنا ألؤفا من العظام والهيكل وقمنا بفحصها بدقة متناهية، وتحصلنا على نصيب وافر من المعرفة من هذه الدراسة، وهى معرفة ما كنا نتحصل عليها من دراسة الكتب.

وكان جالينوس من قد علمنا بأن الفك الأسفل يتألف من عظمين يجمع بينهما نسيج ضام، غير أننا عاينا ألفى عظم، ولم نجد فيها فكاً واحداً مؤلفاً من عظمين.. إنه عظم واحد دون أى رفو..»

فهنا لم يقف تعارف وتعرّف العلم الإسلامى -حتى عندما يكون بإزاء الأسماء اللامعة فى سماء العلم اليونانى- عند قراءة الكتب واقتباس المعلومات، وإنما قام بتطبيق مناهج الملاحظة والاستقراء

والتجريب- التى أبدعها وبرع فيها- فانتقد ما وجدته بالكتب، بعدما «عين» آلاف الحالات- كما يقول البغدادي الطبيب.

● ونموذج آخر، هو الطبيب ابن النفيس [٦٨٧هـ-١٢٨٨م]- الذى قام بالملاحظات والتجارب التى اكتشفت خطأ «جالينوس» فى مسارات الدورة الدموية. «فقد اكتشف ابن النفيس- لأول مرة. . وعن طريق التجربة- خطأ «جالينوس» حول دخول الدم من خلال ثقب الحجاب الحاجز من حجرة إلى أخرى (الأذين والبطين).

فصحح الدورة الدموية الصغرى بمساعدة التشريح.

- وهو اكتشاف انتحله بعده بثلاثة قرون الإسباني ميخائيل سيرفت- ولقد تحدث ابن النفيس عن دور الملاحظة والتجريب فى تصحيح المعلومات المتوارثة، فقال:

«لكى نصف مهمة كل عضو على حدة، نستند إلى ملاحظة دقيقة ودراسة صريحة، دون الأكثرث ما إذا كانت تلك من علوم الأولين الذين سبقونا أم لا»^(١).

لقد كان العلم اليونانى- كما تقول المستشرقة الألمانية د. سيجريد هونكة [١٩١٣-١٩٩٩م]، تأمليا نظريا عقليا. . وكانت التجربة فيه غالبا محتقرة، لأنها-كعمل يدوى- خاصة بالعييد! . . وفى الفكر المسيحى، كان العالم بأسره دنساً لأن مملكة المسيح ليست فيه! . .

(١) دكتور سيجريد هونكة [العقيدة والمعرفة] ص١٢٤، ١٢٥، ١٢٠، ١٢١، ١١٥-١١٧، ١٣٠، ١٦٥، ١٦٦. ترجمة: عمر لطفى العالم. طبعة دمشق ١٩٨٧م. وانظر كتابنا [الإسلام فى عيون غربية] ص ٣٤٤-٣٥٢ طبعة القاهرة، ٢٠٠٥م.

وكان التجريب- في هذا العالم الدنس- هرطقة، تطلب الحقيقة خارج الإنجيل!

«.. ولئن كان اليوناني- في جوهره- من فلاسفة الطبيعة (مع وجود استثناءات) فإن المسلم قد غدا عالم الطبيعة بالمعنى الحرفي للكلمة، ومخترع علم الطبيعة التجريبي.. وإذا احتقر اليوناني الحر العمل البدني- عمل الرقيق.. باعتباره غير شريف، واعتبر الاستعمال التطبيقي للمعرفة بمثابة حط من شأن الفكر، وتدني للمثل العليا.. فإن هذا يتعارض تمامًا مع الواقع التجريبي للمسلمين.. وبفضل هذا الفرق كان المسلمون أكثر من مجرد وسطاء للتراث اليوناني، أكثر من سعاة بريد للقديم.. فلم يرتضوا أن يرددوا كالبغايا معارف القدماء، وإنما ابتكروا شيئًا خاصًا وجديدًا»^(١).

إن العالم- ميدان التجريب- هو- في الرؤية الإسلامية- خلق الله، يسبح بحمده- وإن لم نفهقه تسيحجه-، ولذلك كان اكتشاف أسرارهِ- بالتجريب- عبادة تجعل العلماء القائمين على الملاحظة والتجريب أشد الناس خشية لله، خالق هذا الكون، ومبدع هذا الوجود.

ومما له دلالة- في هذا المعنى- أن آية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. إنما جاءت في سياق الحديث عن علوم الطبيعة- وليس العلوم النظرية- علوم الماء.. والسماء.. والنبات.. والجيولوجيا.. والإنسان.. والحيوان.. والحشرات.. إلخ.. ﴿أَلَمْ تَرَ

(١) سيجريد هونكة [الله ليس كذلك]. ص ٨٠ ترجمة: دكتور غريب محمد غريب. طبعة القاهرة ١٩٩٥م. [والعقيدة والمعرفة] ص ١٥٨، ١٥٩.

أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْوَانُهُمْ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٧﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]. ولهذه الفلسفة الإسلامية المتميزة إزاء الكون والوجود.. والتي جعلت النظر في أسرار الوجود فريضة.. وطريقا لتسخير قوى الوجود لاستعمار الأرض وعمرانها.. كانت هذه الإضافات الخلاقة في تعارف الحضارة الإسلامية مع علوم الأولين القدماء من أبناء الحضارات الأخرى.

هكذا تجاوز التعارف الحضارى حدود الانفتاح والاستلهام، إلى مجالات النظر.. والشك.. والنقد.. والتصحيح.. والإضافة.. والإبداع.

وهكذا تحقق التعارف بين الحضارة الإسلامية وبين موارث الحضارات القديمة -الفارسية.. والرومانية.. واليونانية.. والهندية- منذ بزوغ شمس هذه الحضارة الإسلامية- فى عصر صدر الإسلام- وعلى امتداد التاريخ الوسيط لأمة الإسلام.. عندما أحيى المسلمون موارث تلك الحضارات، بعد أن هددها الموت.. ثم قاموا بالتعرف عليها والتعارف معها على هذا النحو الذى ضربنا له الأمثال.

-٦-

وفى العصر الحديث.. وبعد قرون من الغفوة والعزلة، أحدثتهما «عسكرة الدولة» بسبب الغزوات الخارجية التى هددت الوجود -الصلبيية.. والتترية- استنفاقت الأمة على وقع الصدمة التى أحدثتها

الحملة الفرنسية- التي قادها «بونابرت» [١٨٦٩-١٨٢١م] على مصر والشرق [١٢١٣هـ-١٧٩٨م]. . . وهى الصدمة التى واجهها رائد التجديد الشيخ حسن العطار [١١٨٠-١٢٥٠هـ-١٧٦٦-١٨٢٥م] بقوله:

«إن بلادنا لا بد أن تتغير: ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها..»

ولقد أرسل العطار أنجب تلاميذه -الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى [١٢١٦-١٢٩٠هـ-١٨٠١-١٨٧٣م]، إماما للبعثة التى ذهبت إلى باريس تطلب التعرف على حضارة أوربا الحديثة [١٢٤١هـ-١٨٢٦م]. . . فكان الطهطاوى أول عين للشرق الحديث على نموذج النهضة الأوروبية الحديثة. . . وأول من طبق المنهاج الإسلامى فى تعارف الحضارات على ما وجده فى باريس.

لقد ذهب الطهطاوى إلى باريس وهو عازم على التعرف على الحضارة الأوربية، وكسر حاجز العزلة الحضارية عن مصر والشرق، معلنا:

«أن مخالطة الأعراب، لا سيما إذا كانوا من أولى الألباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب»^(١).

ولأن الطهطاوى قد ذهب إلى باريس بعد أن استوى عوده الفكرى بالأزهر الشريف، وانطبعت هويته بالإسلام -العقيدة والشريعة والقيم والانتماء للوطن

(١) الطهطاوى [الأعمال الكاملة] ج١ ص ١٢٠. دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة القاهرة ٢٠١٠م.

والأمة- فإن الرجل لم ينبهر ولم يندعش بما رأى في باريس من حضارة مزدهرة، كانت -يومئذ- تخطف أبصار الكثيرين . . . ولذلك، ميّز الطهطاوى- وهو رائد التعارف على الحضارة الأوربية الحديثة، بين العلوم الدقيقة والمحايذة- التى سماها «علوم التمدن المدني» . . . والتى هى شرط فى تقدم الوطن- تلك التى لا تختلف حقائقها وقوانينها باختلاف الديانات والفلسفات والأوطان- وهى العلوم التى سبق للأوروبيين- إبان نهضتهم- أن أخذوها عن المسلمين- الذين سبق وأخذوها عن الحضارات القديمة- . . . ميّز الطهطاوى- فى التعارف الحضارى- بين هذه العلوم- التى هى مشترك إنسانى عام- وبين مالدى أهل باريس وأوربا من فلسفات وضعية لادينية، تعتمد العقل المجرد من الشرع، والنواميس الطبيعية المعزولة عن نبأ السماء . . . والتى تخالف فلسفة الإسلام، التى يتزاج فيها العقل والنقل، والحكمة والشريعة . . .

ولقد أدرك الطهطاوى أن هذه الفلسفة الوضعية الأوربية- التى وصفها بأنها «حشوات ضلالية»- قد همّشت النصرانية، وأفقدتها المصدقية والتأثير على سلوك الأوروبيين . . .

كما ميّز -فى تعارفه وتعرّفه على الحضارة الأوربية- بين التجارب الإنسانية- فى النظم الدستورية والنيابية- التى تضع مبادئ الحرية وقيمها فى الممارسة والتطبيق وتنظم شورى الأمة وسلطات أهل الحل والعقد فيها . . . ميّز بين هذه التجارب وبين خصوصيات أهل باريس فى العقائد والفلسفات ومنظومة القيم والأخلاق . . .

ولم يغفل الطهطاوى عن أنه يتعامل مع حضارة ذات نزعة امبريالية، تسعى إلى الغزو والاستعمار. . فنبه على ضرورة التمييز- فى التعارف الحضارى- بين استلها «علوم التمدن المدنى» و«الخبرات الإنسانية التى تحققت فوائدها» . . وبين النزعة الإمبريالية لهذه الحضارة. . ولقد عبر عن ذلك شعرا ونثرا، فقال:

نعم، بيننا جنسية الود والصفاء ولكننى لم أُلْفها علة الضم!
ذلك «أن الأمة المصرية أصعب على نفوسها الانقياد للأغراب»^(١)

ولقد نبه الطهطاوى قومه -وهو يتعرف على الحضارة الأوربية- إلى وقوف المسلمين- يومئذ- بمعنى «العلم» عند علوم النقل. . والآليات. . دون علوم المقاصدة وعلوم التمدن المدنى، التى لها مدخل فى عمران الأوطان وتقدمها. . فقال:

«وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى فى العلوم عمن عداهم، وبذلك تعرف خلو بلادنا من كثير منها، وأن الجامع الأزهر المعمور، بمصر القاهرة، وجامع بنى أمية، بالشام، وجامع الزيتونة، بتونس، وجامع القرويين، بفأس، ومدارس بخارى، ونحو ذلك، كلها زاخرة بالعلوم الثقيلة وبعض العلوم العقلية، كعلوم العربية والمنطق، ونحوه من العلوم الآلية»^(٢).

(١) الطهطاوى [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة طبعة القاهرة ٢٠١٠.

جا ص ١٢١.

(٢) المصدر السابق. جا ص ١٢٩.

وكما تعرّف الطهطاوى على علوم التمدن المدنى الأوربية، التى هى شرط فى عمران الأرض وتقدم الأوطان.. وعلى التجارب الإنسانية فى النظم الدستورية والنيابية.. كذلك تعرّف على إبداعات الفرنسيين فى المسرح -«التياتر»- الذى أصبح مدرسة لتعليم الجماهير..

ولقد خلص الطهطاوى- فى هذا التعارف بين الشرق الإسلامى وبين النموذج الحضارى الأوروبى -إلى صيغة دعا فيها إلى استلهاهم علوم التمدن المدنى الأوربية.. وهى -بعبارة: «العلوم الشريفة، التى يُتَنَفَعُ بها ويُحْتاج إليها فى الدولة والوطن، كعلم الطب، والهندسة، والرياضيات، والفلكيات، والطبيعات، والجغرافيا، والتاريخ، وعلوم الإدارة، والاقتصاد فى المصاريف، والفنون العسكرية، وكل ما له مدخل فى فن أو صناعة»^(١).

دعا إلى استلهاهم هذه العلوم «الشريفة».. فى ذات الوقت الذى رفض فيه الفلسفة الوضعية اللادينية، التى تقف عند العقل المجرد عن الشرع والدين.. تلك التى همشت النصرانية فى أوروبا..

خلّص الطهطاوى إلى هذه المعادلة -فى تعارفه وتعرّفه على الحضارة الأوربية- وصاغها هذه الصياغة الدقيقة والمتوازنة، التى قال فيها:

أبوجد مثل باريس ديار شمس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح أما هذا وحقكم عجيب!

(١) الطهطاوى [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة طبعة القاهرة ٢٠١٠. ج١- ص ٢٨٥.

فهذه المدينة، كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية:

إن أكثر أهل هذه المدينة، إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيره له عليه، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما في كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية.. ولهم في الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية..

وبعد وصف الطهطاوى ورصده لمكونات هذه المعادلة - في النموذج الحضارى الأوربي :-

- الحكمة والإحكام فى علوم التمدن المدنى، التى لا تغيب ولا تغرب شمسها فى هذه البلاد.

- وتهميش الدين، وتأليه العقل المجرد والنواميس الطبيعية، وتغيب الشرع.. حتى أن ليل الكفر ليس له صباح!

بعد هذا التصوير للنهضة العلمية فى ظل الفلسفة الوضعية اللادينية -المليئة بالحشوات الضلالية:-.. نبه الطهطاوى على توازن النموذج الحضارى الإسلامى، الجامع بين العقل والشرع.. بين الأمور المعقولة والأمور التعبدية.. والذى جعل السياسة شرعية، لا تحتكم -فقط- إلى الدنيوية العلمانية.. نبه الطهطاوى إلى هذا النموذج الإسلامى المقابل للنموذج الأوربي - فقال:

«إن تحسين النواميس الطبيعية لا يُعتدّ به إلا إذا قرره الشرع، والتكاليف الشرعية والسياسية التي عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية من الموانع والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه وتعالى. وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبّحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقيّحه.

والذي يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع، ومرجعها الكتاب العزيز الجامع لأنواع المطلوب من المعقول مع ما اشتمل عليه من السياسات المحتاج إليها في نظام أحوال الخلق، كشرع الزواجر المفضية إلى حفظ الأديان والعقول والأنساب والأموال، وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض، كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامه.

فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى. ولا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسّينا وتقيّحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود. فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة. ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاصد، ولا ينافى المتجددات التي يخترعها من منحهم الله العقل وألهمهم الصناعة»^(١).

ولقد ظل الطهطاوى وفيها لهذا الموقف النقدي من النموذج الحضارى الأوربى يستلهم إيجابياته . . ويعارض سلبياته . .

(١) الطهطاوى [الأعمال الكاملة]. ج٢ ص ١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧
طبعة بيروت ١٩٧٣م.

● فعندما عاد إلى مصر، ورأس «قلم الترجمة» دفع إلى مطبعة الدولة بقائمتين من الكتب لطباعتها. . الأولى بالترجمات فى علوم التمدن المدنى، التى هى شرط عمارة الوطن وتقدمه، والثانية خاصة بكتب التراث الإسلامى التى تجدد حبال التواصل بين العقل المسلم الحديث وبين نموذج الحضارى الإسلامى الأصيل.

● وعندما بدأت بواكير تسلل القوانين الوضعية الأوربية إلى مصر- على عهد الخديوى سعيد باشا [١٢٧٠-١٢٧٩هـ- ١٨٥٤- ١٨٦٣م]- فى المحاكم التجارية- بالموائى- للفصل فى المنازعات بين التجار الأجانب والتجار المصريين. . عارض الطهطاوى هذا التسلل للقانون الوضعى الذى يزيع فقه المعاملات الإسلامىة عن عرشه الطبيعى. . فكتب معارضا. . ومعللا معارضته. . فقال:

«.. مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة. ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامىة ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك.

إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشاريعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرئى، ولم تخرج الأحكام

السياسية عن المذاهب الشرعية، لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع..»^(١).

تلك هي الرؤية الإسلامية لقانون العلاقات بين الحضارات.. الرؤية التي:

- ترفض إقامة الأسوار الصينية العازلة بين الحضارات، بالتركيز- فقط- على الخصوصيات التي تتميز بها كل حضارة من هذه الحضارات.
- وترفض التبعية والتقليد والتماهي بين الحضارات، انطلاقاً من إبراز ما بين هذه الحضارات من «عموم» وإغفال ما لكل منها من «خصوصيات».. ذلك الذي يفضى -عملياً- إلى هيمنة الحضارات القوية على غيرها من الحضارات، بمنطق الداروينية، التي تجعل البقاء للأقوى، زاعمة أن هذا الأقوى هو الأصلح:-
- لتصل هذه الرؤية الإسلامية- في تعارف الحضارات- إلى تحديد سمات العموم، التي يجب أن تكون ميداناً للتعارف والتفاعل بين الحضارات، مع العناية بقسمات الخصوصيات التي تتميز بها كل حضارة من هذه الحضارات، والتي يفضى الاهتمام بها إلى بقاء التنوع والتمايز والتعدد بين الحضارات التي تدعها الأمم والشعوب.

(١) الطهطاوى [الأعمال الكاملة]. ج١ ٥٤٤، ٣٦٩، ٣٧٠، ٥٣٣. طبعة بيروت ١٩٧٣م.

هكذا كان موقف الحضارة الإسلامية من هذه القضية، التي كانت ولا تزال مثيرة للسجدل والخلاف.. وتلك هي نماذج للتطبيقات التاريخية، التي شهدتها التاريخ الإسلامي في تعارف الحضارات، منذ عصر صدر الإسلام وحتى عصرنا الحديث..

-٧-

ولم يشذ عن هذا إلا نفر قليل من الذين أبهروا بالنموذج الغربى، إبان تراجع الدولة العثمانية واضمحلالها.. فاجتهدوا اجتهاداً خاطئاً سرعان ما تراجع أغلبهم عنه عندما نضجوا فكرياً.. ومن أبرز هذه النماذج: الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥-١٣٨٦هـ-١٨٨٧-١٩٦٦م].. الذى أحدث كتابه [الإسلام وأصول الحكم]- سنة ١٩٢٥م- فى العام التالى لإسقاط الخلافة الإسلامية، وإزالة رمزها، وتحطيم وعائها، لأول مرة فى تاريخ الإسلام-.. أحدث هذا الكتاب، الذى حاول- لأول مرة فى تاريخنا الفكرى- علمنة الإسلام.. وإهالة التراب على نموذج الخلافة الإسلامية وتاريخها- أحدث أكبر المعارك الفكرية فى القرن العشرين.. كما مثل هذا الكتاب- على صغر حجمه.. وكثرة الردود عليه- ولا يزال يمثل- «إنجيل» العلمانيين العرب والمسلمين حتى هذه اللحظات!..

* لقد ذهب هذا الكتاب إلى علمنة الإسلام، وإنكار علاقته بالسياسة والدولة والحكومة وبناء الوطن والأمة.. فقال:

«إن محمداً -ﷺ- ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للمدين.. غير مشوية بشيء من الحكم. وإنه لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها. ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل.. وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة ولا داعياً إلى ملك..»

وإن ظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبى -ﷺ- لم يكن له شأن فى الملك السياسى، وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان.. ولاية الرسول على قومه ولاية روحية.. وولاية الحاكم ولاية مادية.. تلك ولاية هداية إلى الله وإرشاد إليه، وهذه ولاية تدبير لمصالح الحياة وعمارة الأرض، تلك للمدين وهذه للدنيا، تلك لله، وهذه للناس، تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية..

وإن تلك الوحدة العربية التى وُجدت زمن النبى -عليه السلام- لم تكن وحدة سياسية بأى وجه من الوجوه، ولا كان فيها معنى من معانى الدولة والحكومة، بل لم تعدُ أبداً أن تكون وحدة دينية خالصة من شوائب السياسة، وحدة الإيمان والمذهب الدينى، لا وحدة الدولة ومذاهب الملك. يدل ذلك على هذا سيرة النبى ﷺ فما عرفنا أنه تعرض لشيء من سياسة تلك الأمم الشنتية، ولا غير شيئاً من أساليب الحكم عندهم، ولا مما كان لكل قبيلة منهم من نظام إدارى أو قضائى.. ولا سمعنا أنه عزل والياً، ولا عين قاضياً.. إنهم كانوا دولاً شنتى، على قدر ما تسمح به حياة العرب يومئذ من معنى الدولة والحكومة. تلك حال العرب يوم لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى، وحدة دينية عامة من تحتها دول تامة التباين إلا قليلاً..

هيئات هيئات، لم تكن ثمة حكومة ولا دولة، ولا شيء من نزعات السياسة، ولا أغراض الملوك والأمراء.. لم يكن هناك ترتيب حكومي، ولم يكن ثمة ولاية ولا قضاة ولا ديوان.. إلخ.. كانت زعامة دينية.. ويا بعد ما بين السياسة والدين»^(١).

هكذا قال كتاب [الإسلام وأصول الحكم] عن علاقة الإسلام بالدولة والسياسة والحكم والتشريع والقانون.

● وعن الخلافة الإسلامية، وطبيعة السلطة فيها، صور كتاب [الإسلام وأصول الحكم] هذه الخلافة نظاما ثيوقراطيا كهنوتيا، قائما على استبداد القوة الرهيبية -حتى في عهد الخلفاء الراشدين-!.. فقال: «إن الخليفة ولايته عامة مطلقة.. وهو يقوم في منصبه مقام الرسول ﷺ وينزل من أمته منزلة الرسول من المؤمنين.. فولايته كولاية الله تعالى، وولاية رسوله.. بل لقد رفعه المسلمون فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد من مقام العزة الإلهية.. ولم تتركز الخلافة -على مر تاريخها.. وحتى في عهد الراشد- إلا على أساس القوة الرهيبية»^(٢).

● كما نفي كتاب [الإسلام وأصول الحكم] أية علاقة للإسلام

(١) على عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص ٤٨-٨٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م. [ولقد قامت الكتب التي صدرت ردا على كلام على عبد الرازق هذا بتفنيد هذا الإنكار لإقامة الرسول ﷺ دولة وحكومة.. انظر كتبنا [الإسلام والسياسة] و[معركة الإسلام وأصول الحكم] و[إسلاميات السنهورى باشا].

(٢) [الإسلام وأصول الحكم] ص ٢-٨، ٢٥.

بمرجعية الحكومة ونظام الحكم، وبلغ حد القول بأن للمسلمين أن يقيموا في مجتمعاتهم أية حكومة وأى نظام وأية مرجعية حتى ولو كانت البلشفية -الماركسية اللينينية المادية-!.. فقال:

«إن للمسلمين أن يقيموا في مجتمعاتهم أية حكومة، في أية صورة كانت الحكومة، ومن أى نوع، مطلقة، أو مقيدة، فردية أو جمهورية، استبدادية أو شوروية ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية»^(١).

هكذا تهاهى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] مع النموذج الغربى -الوضعى العلمانى-.. وصور الإسلام مسيحية، يدع ما لقيصر لقيصر مكتفياً بما لله.. حتى لقد وصف هذه العبارة الإنجيلية -«دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»- بالعبارة البالغة!

لكن التطورات والملابسات التى أحاطت بالأفكار الصادمة والشاذة التى حواها هذا الكتاب، سرعان ما عجلت بالعدول عن مقولاته.. بل والتأكيد على نقائص هذه المقولات:

● ففى الأول من سبتمبر سنة ١٩٢٥م -أى بعد ستة أشهر من صدور هذا الكتاب- أعلن الشيخ على عبد الرازق -فى حديث مع صحيفة «السياسة»- أن الإسلام دين تشريعى -أى أنه ليس مجرد عقيدة ورسالة روحية- وأن شريعته لا بد أن تنفذ فى المجتمعات الإسلامية- أى

(١) [الإسلام وأصول الحكم] ص ٣٥.

أنه لا بد من حكومة إسلامية وسلطة تنفيذية إسلامية تطبق شريعة الإسلام - أيًا كان شكل هذه الحكومة والسلطة، المتتزمة بالمرجعية الشرعية الإسلامية . . وينص عبارته قال:

«إن الإسلام دين تشريعي، وإنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده، وإن الله خاطبهم جميعاً بذلك، ولكن الله لم يقيدهم بشكل مخصوص من أشكال الحكومات، بل ترك لهم الاختيار في ذلك وفق مقتضيات الزمن، وحيث تكون المصلحة»^(١).

● وبعد سبع سنوات على صدور كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - الذي رفض الشيخ على عبد الرازق إعادة طبعه طوال حياته ١٩ - ألقى الشيخ على - سنة ١٩٣٢ م - محاضرة بقاعة «إيوارت» - بالجامعة الأمريكية - بالقاهرة - أكد فيها على أن مصر - على مَرَاتِيخِهَا - كانت ملتزمة - كدولة وحكومة - دائماً وأبداً - بحاكمية القرآن الكريم والشريعة الإسلامية - في حكوماتها وقانونها - . . فقال:

«لقد جرت مصر منذ العصور الأولى على أن يكون الحكم فيها شرعياً، يرجع إلى أحكام الإسلام والأوضاع الإسلامية، وكان المصريون يفتزعون أن يحتكموا إلى غير الإسلام، لأن الحكم بغير ما أنزل الله كفر صريح في القرآن»^(٢).

(١) صحيفة «السياسة» في ١ سبتمبر سنة ١٩٢٥ م.

(٢) كتاب [حضارة مصر الحديثة] طبعة الجامعة الأمريكية - المطبعة العصرية - القاهرة سنة ١٩٣٣ م.

● وفي سنة ١٩٤٦م كان الشيخ على عبد الرازق عضواً بمجلس النواب. . وعرض على المجلس قانون للأوقاف، رأى فيه بعض الثغرات التي تمس مرجعية الشريعة الإسلامية، وتمس الفقه الإسلامى - وهما - برأيه- الرابطة الأقوى للمسلمين - . . فحذر الشيخ على عبد الرازق من هذا الخطر. . وقال -مخاطباً أعضاء مجلس النواب:-

«إنكم، فى هذا التشريع، توشكون أن تفتحوا فى باب التشريع الإسلامى حدثاً جديداً، أخشى أن يكون بعيد العواقب، وأخشى أن تكون أقرب الآثار المترتبة عليه أن يمزق الفقه الإسلامى، الذى هو الرابطة الأقوى بين الأمم الإسلامىة»^(١).

● وفى سنة ١٩٥١م وصف الشيخ على عبد الرازق عبارة: «الإسلام رسالة روحية» -التي تناولها كتاب [الإسلام وأصول الحكم] بالتفصيل فى باب عنوانه: «دين لا دولة ورسالة لا حكم» -وصفها بأنها كلمة شيطانية ألقاها الشيطان على لسانه!! فقال، معلقاً على حوار دار بينه وبين الأستاذ أحمد أمين [١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ - ١٨٧٨ - ١٩٥٤م] أعاد فيه ذكر هذه العبارة -قال:

«.. وما أرى فى الأمر إلا أن هناك خطأ فى التعبير جرى به لسانى فى المجلس الذى كنا نتجادل فيه ونستعرض حال المسلمين. وما أدرى كيف تسربت كلمة روحانية الإسلام إلى لسانى يومئذ؟!، ولم أرد معناها، ولم يكن يخطر لى ببال.

(١) مضطمة مجلس النواب المصرى سنة ١٩٤٦م.

بل لعله الشيطان ألقى فى حديثى بتلك الكلمة.. وللشيطان أحياناً
كلمات يلقيها على ألسنة بعض الناس»^(١).

هكذا تم التراجع عن أخطر المقولات التى حملها كتاب [الإسلام
وأصول الحكم] سنة ١٩٢٥م- والتى حاولت علمنة الإسلام.. والفصل
بينه وبين الحكم والدولة والسياسة والتشريع والقانون.. وتحويله إلى
مسيحية تدع ما لقيصر لقيصر -حتى ولو كان قيصر هذا بلشفيًا-..
والاكتفاء بروحانية الدين والشعائر والعبادات..

كما حاولت هذه المقولات تشويه صورة الخلافة الإسلامية.. وإنكار
وجود مرجعية إسلامية لنظام الخلافة والحكم فى بلاد الإسلام..
تم التراجع -الواضح والحاسم والصريح- عن هذه المقولات.. وحدث
الإياب إلى النموذج الإسلامى فى الحكم والسياسة والتشريع والقانون.

-٨-

وكان الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ - ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] أبرز
الفرسان الذين دافعوا - فى صحيفة «السياسة» - عن كتاب [الإسلام
وأصول الحكم].. بل لقد اعترف سنة ١٩٧١م - بأنه شريك فى تأليف
هذا الكتاب.. وينص عبارته:

(١) على عبد الرازق «تعليق على مقال الاجتهاد فى الإسلام» مجلة «رسالة الإسلام» عدد
مايو ١٩٥١م.

«لقد قرأت أصول كتاب الشيخ على، قبل طبعه، ثلاث مرات، وعدلت فيه كثيراً»^(١).

● كما تبني طه حسين الفكرة المحورية لهذا الكتاب -نفي علاقة الإسلام بالدولة والحكم- في كتابه [مستقبل الثقافة في مصر] سنة ١٩٣٨م- عندما قال:

«إن السياسة شيء والدين شيء آخر.. وإن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول»^(٢).

● ومضى طه حسين -في مرحلة انبهاره بالنموذج الحضاري الغربي.. ودعوته للتماهي مع هذا النموذج، والاستعارة لسماته وقسماته- مضى فحاول التأصيل لوحدة الشرق مع الغرب- وحدة العقل ومكوناته.. ووحدة الحضارة -قديمًا وحديثًا- فقال:

«إن العقل الشرقي هو كالعقل الأوربي، مرده إلى عناصر ثلاثة:

١- حضارة اليونان، وما فيها من أدب وفلسفة وفن.

٢- وحضارة الرومان، وما فيها من سياسة وفقه.

٣- والمسيحية، وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان.

(١) دكتور محمد الدسوقي [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] ص ٧٠، ٧١. طبعة دار المعارف -سلسلة إقرأ- القاهرة سنة ١٩٩٢م. وانظر كتابنا [الإسلام بين التنوير والتزوير] طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٥م.

(٢) [مستقبل الثقافة في مصر] ص ١٧، ١٦.

وإن السبيل واضحة بينة مستقيمة. ليس فيها عوج ولا التواء، وهى واحدة فذة ليس فيها تعدد. وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم فى الحضارة. خيرها وشرها حلوها ومرها، ما يجب منها وما يُكره، ما يُحمد منها وما يُعاب.

وإن الإسلام قد تقبل الحضارة اليونانية، فلم لا يتقبل الحضارة الفرنسية؟ والحضارة الغربية والفرنسية قائمتان على أساس واحد هو الحضارة اليونانية اللاتينية. وهو فى نهاية الأمر الحضارة الكلاسيكية..

لقد التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبيها فى الحكم، ونسير سيرتها فى الإدارة، ونسلك طريقها فى التشريع.. التزمنا هذا كله أمام أوروبا.. وهل كان إعضاء معاهدة الاستقلال -[سنة ١٩٣٦م] ومعاهد إلغاء الامتيازات. [سنة ١٩٣٨م] - إلا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين فى الحكم والإدارة والتشريع»^(١)!

● وفى سبيل التماهى مع النموذج الغربى... انتقد طه حسين محاولات الشيخ محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ - ١٨٤٩-١٩٠٥م] «التوفيق بين عبارات القرآن وحقائق العلم.. معتبراً هذه المحاولات «أفكاراً بالية»: .. لأن الناس -برأيه- «يندفعون بابتهاج نحو الحضارة الغربية، ويتخذونها مثلاً أعلى.. وقليل هم المسلمون الذين يهتمون بالتوفيق بين إيمانهم والمعارف التى حصلوها.. لذلك، صار المتمسكون بآراء محمد عبده

(١) [مستقبل الثقافة فى مصر] ج١ ص ٢٩، ٤٥، ٣٦، ١٧.

وقاسم أمين (١٢٨٠ - ١٣٢٦ هـ - ١٨٦٣ - ١٩٠٨ م) يُعدون محافظين، بل ويُدرجون أحياناً بين المتخلفين»^(١)!

● وكان طه حسين قد ذهب على طريق التماهى مع الحضارة الغربية -القديمة والحديثة، إلى تفجير معركة فكرية كبرى حول القرآن الكريم، فى العام التالى لصدور كتاب [الإسلام وأصول الحكم] . .

ففى سنة ١٩٢٦ م أصدر كتابه [فى الشعر الجاهلى] وفى سبيل التشكيك فى صدق نسبة كثير من هذا الشعر إلى من نُسب إليهم من الشعراء . . نحا طه حسين نحو الأوربيين الذين استخدموا شك ديكرت فى [١٥٩٠ - ١٦٥٠ م] فى نفي الصدق التاريخى عن أسفار العهدين القديم والجديد . . فتماهى طه حسين مع هذا المنهج الديكرتى فى التعامل مع القرآن الكريم . . فشكك فى الصدق التاريخى لما جاء بالقرآن عن:

- ١- الرحلة الحجازية لأبى الأنبياء إبراهيم -عليه السلام- .
- ٢- وإقامته قواعد البيت الحرام هو وابنه إسماعيل -عليه السلام- .
- ٣- وحديث القرآن عن صلة الإسلام بملة إبراهيم والحنيفية والحنفاء^(٢) .

ولقد أثارت هذه الأفكار الصادمة معركة فكرية كبرى، شارك فيها عدد كبير من شيوخ العلم والفكر -من بينهم الشيخ محمد الخضر

(١) [من الشاطىء الآخر] ص ٣٦، ٣٧، ٦٢ .

(٢) طه حسين [فى الشعر الجاهلى] ص ٨٠، ٨١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م.

حسين [١٢٩٣- ١٣٧٧هـ - ١٨٧٦ - ١٩٥٨م] والعلامة محمد فريد
وجدى [١٢٩٥- ١٣٧٣هـ - ١٨٧٨ - ١٩٥٤م] - ونوقش الأمر فى
البرلمان المصرى . . وأحيل طه حسين إلى التحقيق أمام النيابة العامة . .
التي قررت وقوع الجناية بحق القرآن الكريم، لكن دون توفر القصد
الجنائى لدى طه حسين . . وبنص عبارة رئيس النيابة -محمد نور-:
فإن الباحث هذا فى بحثه «حذو العلماء من الغربيين . ولكن لشدة تأثر
نفسه بما أخذ عنهم قد تورط فى بحثه حتى تخيل حقاً ما ليس بحق،
أومازال فى حاجة إلى إثبات أنه حق، فكان يجب عليه أن يسير على
مهل، وأن يحتاط فى سيره حتى لا يضل، ولكنه أقدم بغير احتياط
فكانت النتيجة غير محمودة . .

إن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدي على الدين، بل
إن العبارات الماسية بالدين، التي أوردها فى بعض المواضع من كتابه،
إنما أوردها فى سبيل البحث العلمى، مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها،
وحيث أنه، من ذلك، يكون القصد الجنائى غير متوفر، لذلك تحفظ
الأوراق إدارياً»^(١).

لقد قررت النيابة العامة ثبوت «جناية التورط فى الطعن والتعدي على
الدين» -من طه حسين- وعزت ذلك إلى «حذوه حذو العلماء من الغربيين،
وشدة تأثر نفسه بما أخذ عنهم» . . أى أن سبب الجناية هو التماهى مع
النموذج الغربى فى التعامل مع المقدس «دون تمهل ولا احتياط» . .

(١) دكتور جابر عصفور [التنوير يواجه الظلام] ص ١٣، ١٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

ولقد اعترف طه حسين -نفسه- بهذا الذى صنعه فى كتابه هذا .
فقال - فى مقام آخر- :

« لقد شككت فى بعض المعتقدات التى لا تمس الدين، وإن كانت قد
ذُكرت فى القرآن أو فى الأحاديث النبوية. وكانت الصدمة قاسية،
والاستنكار واسع النطاق»^(١).

هكذا -وعلى هذا النحو- سار الدكتور طه حسين على طريق
التماهى مع النموذج الغربى -الوضعى العلمانى- مدعياً وحدة العقل
الشرقى والغربى -قديماً وحديثاً- ووحدة الحضارة -قديماً وحديثاً- . .
وطبق على المقدس الإسلامى مناهج الشك التى طبقها الأوروبيون على
أسفار العهدين القديم والجديد . . لأن الإسلام -بزعمه- هو
كالمسيحية . . ولأن القرآن لم يغير من يونانية العقل الشرقى، لأنه -مثل
الإنجيل- الذى لم يغير من يونانية العقل الأوروبى^(٢).

لكن . . لأن طه حسين لم يكن «عميلاً حضارياً» . . وإنما كان منبهراً
بالنموذج الحضارى الغربى، الذى قارن بين ازدهاره -يومئذ- وبين
«التخلف العثمانى» -الذى حسبته على الإسلام- . . فلقد قاده هذا
«الانبهار» إلى هذه الاجتهادات الخاطئة . . لذلك، عاد إلى جذوره
الإسلامية -عودة المجتهد المجدد- . . وطوى هذه الصفحات من حياته.
الفكرة الأولى:

(١) [من الشاطئ الآخر] ص ٦٧.

(٢) [مستقبل الثقافة فى مصر] ج١ ص ٢١، ٢٢.

١- لقد حذف السطور -الثمانية والعشرين- التي حملت التشكيك في الصدق التاريخي للقرآن الكريم. . وغير عنوان الكتاب -إلى [فى الأدب الجاهلى]- بعد أن كان عنوانه [فى الشعر الجاهلى]. . وضم إلى محتواه دراسات جديدة، جعلت منه كتاباً جديداً.

٢- وطوى صفحة ما جاء بكتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] عن يونانية العقل الشرقى، والالتزام بالنموذج الحضارى الغربى فى السياسة والإدارة والتشريع. . وعلمنة الإسلام، والقول «بأن السياسة شىء والدين شىء آخر. . وأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول».

طوى هذه الصفحة.. وذلك:

● بالامتناع عن إعادة طبع هذا الكتاب طوال حياته -على عكس كتبه الأخرى. .

● وقوله -عندما سئل عنه- فى أول مارس سنة ١٩٧١م:

«إنه قُدم قوى، عاوز يتجدد، ويجب أعود إليه، وأصلح فيه بعض حاجات، وأضيف»^(١).

● وبعد الإنكار لعلاقة الإسلام بالسياسة وبناء الوطن والدولة. . وصل طه حسين، فى الإياب الفكرى، إلى الدعوة -أثناء مناقشات لجنة وضع الدستور سنة ١٩٥٣م- إلى وجوب الالتزام- فى الدستور والقانون- بحاكمية القرآن الكريم -كل القرآن الكريم- فقال:

(١) طه حسين -من حديث له فى [الأهرام] بتاريخ أول مارس سنة ١٩٧١م.

«إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج عند وضع الدستور، على ما أمر به الإسلام.. وليس هناك أى مقتضى يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن.. وإنه إذا وجد نص دينى صريح، فالحكمة والواجب يقتضيان ألا نعارض النص، وأن نكون من الحكمة ومن الاحتياط بحيث لا نضر الناس فى شعورهم، ولا فى ضمائرهم، ولا فى دينهم.. وإذا احترمت الدولة الإسلام فلا بد أن تحترمه جملة وتفصيلاً.. ولا يكون الإيمان إيماناً ببعض الكتاب وكفراً ببعضه الآخر»^(١).

● وبعد أن كان طه حسين يدافع -سنة ١٩٢٥م- عن كتاب [الإسلام وأصول الحكم] الذى وصف الخلافة الإسلامية «بالكهانة المستبدة» وأن الخليفة -عند المسلمين- «ولايته كولاية الله تعالى وولاية الرسول.. بل لقد رفعه المسلمون فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد من مقام العزة الإلهية»^(٢).

بعد أن كان طه حسين يدافع عن هذه الصورة -الغريبة- للخلافة الإسلامية.. عاد -سنة ١٩٥٥م- فى كتابه [الفتنة الكبرى] ليقدم صورة ناصعة لهذه الخلافة الإسلامية، كنظام مدنى، ملتزم بالشريعة الإسلامية- وفى ذلك قال:

«قد يظن بعض الذين تخدعهم ظواهر الأمور أن نظام الحكم الإسلامى - فى العهد النبوى وفى الخلافة- كان نظاماً ثيوقراطياً، يستمد سلطانه من الله، ومن الله وحده، ولا شأن للناس فى هذا السلطان.. ولا شك أن هذا

(١) طه حسين [لجنة مشروع الدستور]-الجلسة السابعة- ص ٨١، ١٢١. طبعة وزارة الإرشاد القومى- القاهرة بدون تاريخ.

(٢) [الإسلام وأصول الحكم] ص ٢- ٨.

الرأى هو أبعد الآراء عن الصواب.. ذلك أن الإسلام لم يسلب الناس حريتهم، ولم يملك عليهم أمرهم كله، وإنما ترك لهم حريتهم فى الحدود التى رسمها لهم.. لقد ترك لهم عقولاً تستبصر، وقلوباً تستذكر، وأذن لهم فى أن يتوخوا الخير والصواب والمصلحة العامة والمصالح الخاصة ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.. وما من شك فى أن خليفة من خلفاء المسلمين ما كان ليفرض نفسه وسلطانه عليهم فرضاً إلا أن يعطيهم عهده ويأخذ منهم عهدهم، ثم يمضى فيهم الحكم بمقتضى هذا العقد المتبادل بينه وبينهم.. فالخلافة الإسلامية عهد بين المسلمين وخلفائهم.. ولقد قام أمر الخلافة كله على البيعة، أى على رضا الرعية، فأصبحت الخلافة عقداً بين الحاكمين والمحكومين، يعطى الخلفاء على أنفسهم العهد أن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل، وأن يرعوا مصالحهم، وأن يسيروا فيهم سيرة النبى ما وسعهم ذلك، ويعطى المسلمون على أنفسهم العهد أن يسمعوا ويطيعوا وأن ينصحوا ويعينوا.. لذلك، فإن الرأى القائل بأن نظام الخلافة إنما هو النظام الثيوقراطى الإلهى... هو أبعد الآراء عن الصواب..

لم يكن نظام الحكم الإسلامى نظام حكم مطلق، ولا نظاماً ديمقراطياً على نحو ما عرف اليونان، ولا نظاماً ملكياً أو جمهورياً أو قيصرياً مقيداً على نحو ما عرف الرومان، وإنما كان نظاماً عربياً خالصاً، بين الإسلام له حدوده العامة من جهة، وحاول المسلمون أن يملئوا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى..

لقد كان نظاماً إنسانياً، ولكنه على ذلك تأثر بالدين إلى حد بعيد جداً.

لم يكن الخليفة يصدر عن وحى أو شىء يشبه الوحى فى كل ما يأتى

وما يدع، ولكنه على ذلك كان مقيداً بما أمر الله به من إقامة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتناب المنكر والصدود عن البغى..»^(١).

هكذا تحدث طه حسين عن الخلافة الإسلامية، وعن طبيعة السلطة فيها - كنظام مدنى ملتزم بالشريعة الإسلامية.. وقائم على التعاقد بين الأمة والخلافة.. وهكذا قدم هذه الصياغة المحكمة - فقهيًا وتاريخيًا - والتي ناقضت ونقضت ما جاء عن الخلافة فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - الذى شارك فيه طه حسين فى كتابته.. والذى دافع عنه بحرارة شديدة سنة ١٩٢٥م..

● وفى ذات العام الذى نشر فيه طه حسين ما كتب عن الخلافة الإسلامية - سنة ١٩٥٥م - رأس مؤتمر «اللجنة الثقافية للجامعة العربية» - الذى انعقد بجدة - فى جمادى الأولى سنة ١٣٧٤هـ - يناير سنة ١٩٥٥م.

وفى كلمته - بهذا المؤتمر - طوى طه حسين الصفحة التى قال فيها - من قبل - «إن الدين ليس له دور فى بناء الوطن».. وأعلن أن الإسلام هو الذى أقام الوطن المقدس الذى صنع الإنسان المسلم على امتداد عالم الإسلام.. فقال:

«إن لكل مسلم وطنين، لا يستطيع أن يشك فى ذلك شكًا قويًا أو ضعيفًا، وطنه الذى نشأ فيه، وهذا الوطن المقدس - [مهبط الوحي] - الذى أنشأ أمته وكون عقله وقلبه وذوقه وعواطفه جميعًا.

(١) دكتور طه حسين [الفننة الكبرى - عثمان] ج١ ص ٢٢، ٢٥ - ٢٧، ٣٢، ٣٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م.

هذا الوطن المقدس الذى هداه إلى الهدى، والذى يسره للخير، والذى عرفه نفسه، وجعله عضواً صالحاً مصلحاً فى هذا العالم الذى نعيش فيه»^(١).

هكذا أب طه حسين إلى أحضان النموذج الحضارى الإسلامى . . . وغادر الدعوة إلى التماهى فى النموذج الغربى -الوضعى العلمانى- . . . وأعلن ضرورة ووجوب الالتزام بحاكمية القرآن الكريم فى الدستور والتشريع والمجتمع والقانون . . . وأكد على أن الإسلام هو صانع الوطن الإسلامى، والمقومات والسّمات والقسمات التى تمثل هوية الإنسان المسلم، على امتداد الأقاليم والقوميات فى عالم الإسلام .

[٩]

ونموذج ثالث لهذا الإياب الفكرى، نجده عند الدكتور محمد حسين هيكل باشا [١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ - ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م] -الذى برع فى ميادين السياسة والتاريخ والأدب والتراجم والمقال الصحفى -فلقد بدأ حياته الفكرية داعية لاستعارة النموذج الغربى فى التقدم والنهوض، لتتحرر به من الهيمنة والإذلال الأوربى، ولنجدد به حياتنا بعد أن أصابها الجمود والتقليد بما يشبه الانحطاط . . . فأخذ يبشر بهذا النموذج

(١) حسين محمد بافقيه: مجلة [الحج والعمرة] -مكة- العددان ١، ٢ - محرم وصفر سنة ١٤٢٦هـ.

الغربي - القومي . . العلماني - . . وكان رئيساً لتحرير صحيفة «السياسة»، التي كانت منبر الدفاع عن كتاب [الإسلام وأصول الحكم] سنة ١٩٢٥م . .

لكن الدكتور هيكل أخذ يكتشف عدم ملاءمة هذا النموذج الغربي لتاريخنا الفكري، ومن ثم لتجديد واقعنا المعيش . . فانصرف يلمس مقومات نهوضنا وتقدمنا في التراث الفرعوني القديم . . لكنه سرعان ما اكتشف أن الحبال قد تقطعت فيما بين حاضرنا وبين الفرعونية القديمة . . فعاد الرجل - منذ إصداره كتابه [حياة محمد] سنة ١٩٣٠م - إلى التبشير بإسلامية نموذجنا في التقدم والنهوض . .

ولقد تحلى الدكتور هيكل بدرجة عالية من الإخلاص في هذا التحول الفكري، ومن ثم بقدر عال جداً من الشجاعة في نقد مسيرته الفكرية . . وفي نقد النقد الذي وجهه إليه أصدقاؤه المتغربون عندما تحول عن مذهبهم إلى طريق الإصلاح بالإسلام . . . لقد كتب هيكل باشا:

١- في نقد الفكرة القومية الغربية ذات النزعة العنصرية:

التي بشر بها زمننا . . ثم اكتشف مجافاتها لفكرة الأمة الإسلامية، الواحدة المؤسسة على التوحيد الإسلامي . . فقال:

«إن الفكرة الإسلامية، المبنية على التوحيد، تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات، وتصوير الأمم وحدات متنافسة، يحكم السيف وتحكم الدمار بينها فيما تتنافس عليه.

ولقد تأثرنا، معشر أمم الشرق، بهذه الفكرة القومية، واندفعنا ننفخ فيها روح القوة، نحسب أننا نستطيع أن نقف بها في وجه الغرب الذي طغى علينا وأذلنا. وخيل إلينا في سذاجتنا أننا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا، وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وأهدر من كرامتنا الإنسانية.

ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوى هذه الفكرة القومية عليه من جرائم فتاكة بالحضارة التي تقوم على أساسها وحدها، وزادنا ما خيم علينا من سُجف الجهل إمعاناً في هذا السبيل.

على أن التوحيد الذي أضاء بنوره أرواح آبائنا، قد أورثنا من فضل الله سلامة في الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه، ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية، لنخرج من جمودنا المذل، ولنتقى الخطر الذي دفعت الفكرة القومية الغرب إليه، فأدامت فيه الخصومة بسبب الحياة لمادية التي جعلها الغرب إلهه».

٢- ونقد النزعة العلمانية؛

التي طالما بشر بها، ودافع عنها، عندما كان «محمي» كتاب [الإسلام وأصول الحكم]- الذي ادعى أن رسول الإسلام لم ينشئ أمة ولا دولة ولا حكومة، انتقد هيكل هذه النزعة العلمانية. . وكتب - في مرحلة إياها الفكرى - يقول:

«لقد أقام محمد دين الحق، ووضع أساس حضارة هي وحدها الكفيلة بسعادة العالم فبعد الهجرة إلى المدينة، بدأ طور جديد من أطوار

حياة محمد، بدأ الطور السياسي الذي لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل، فلقد كان عيسى وكان موسى، وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية، يبلغونها للناس عن طريق الجدل وعن طريق المعجزة، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة. فأما محمد، فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه، وأن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والقاتل. والدين والحضارة اللذان بلغهما محمد للناس بوحي من ربه يتزاجان حتى لا انفصال بينهما.

وقد خلا تاريخ الإسلام من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية، فأجابه ذلك مما ترك هذا النزاع في تفكير الغرب وتاريخه^(١).

٣- ونقد الانتماء للحضارة الفرعونية؛

- الذى بشر به بعد تحوله عن دعوة الانتماء للحضارة الغربية - وفي ذلك قال:

«ولقد انقلبت - [أى بعد مرحلة الانهيار بالغرب] - ألتمس فى تاريخنا البعيد، فى عهد الفراعين، موثلاً لوحي هذا العصر، ينشأ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة.

(١) دكتور محمد حسين هيسكل [حياة محمد] ص ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٥١٦، ٥١٩. طبعة دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨١م.

وروات [أى نظرت] فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين»^(١).

* وبعد هذه المسيرة الفكرية . . والمعاناة فى البحث عن الجذور والبذور والمنطلقات للمشروع الحضارى النهضوى . . وبعد هذا الإياب للنموذج الإسلامى . . تعرض الدكتور هيكل إلى غمز ولمزمن زملاء الأمس . . الذين اتهموه بالرجعية بعد أن كان تقدما! . . فخرج الرجل إلى الحوار مع هؤلاء الزملاء الناقدین، مقدما لنا صفحة من الحوار الودى المتحلى بالأدب الرفيع، قال فيها:

«.. وأقف هنا لأدفع زعما حسب الذين زعموه أنه مغمز غمزونى به بعد تأليف كتابى [حياة محمد].

لقد حسب هؤلاء أننى انقلبت رجعيا، وكنت عندهم قبلها فى طبيعة المجددين. لكننى أسائل أصدقائى، أحرار الرأى، عن غايتنا جميعا حين نتيج؟ ألسنا نبتغى التقدم خطوة جديدة فى سبيل الكمال؟

ولقد طالما التمسنا فى شرقنا أسباب النهوض بعلمنا، لتقف إلى جانب الإنسانية المهذبة لا ينكس الحجل رؤوسنا، ولا يحز فى نفوسنا ذلك الشعور الممض بأننا دون الغرب مكانا.

(١) دكتور محمد حسين هيكل [فى منزل الوحى] ص ٢٢ - ٢٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٨١.

ولقد خيل إلى زمننا، كما لا يزال يخيل إلى أصحابي، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض، وما أزال أشارك أصحابي في أنا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله.

ولكني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله، فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته، خضع الغرب للتفكير الكنسي على ما أقرته «البابوية» المسيحية منذ عهدنا الأول، وبقي الشرق بريئاً من الخضوع لهذا التفكير، بل حورت المذاهب الإسلامية التي أرادت أن تقيم في العالم الإسلامي نظاما كنسياً، أهول الحرب، فلم تقم لها فيه قائمة أبداً^(١).

بذلك بقي الشرق مطهراً من الأسباب التي أدت إلى اضطراب الغرب الروحي وإلى ثوراته السياسية التي نشأت عن هذا الاضطراب. وبقي المسيحيون المقيمون في الشرق في جوار المسلمين في طمأنينة لا يصلون من نيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصله إخوانهم في الغرب.

كان الخروج على الكنيسة المسيحية في الغرب إعلاناً للثورة على السلطان، وكانت الثقافة الروحية لذلك في قبضة رجال الدين، يبرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه، وينقضون ما يشاءون نقضه. أما والإسلام لا يعرف الكنيسة، وأقرب الناس فيه إلى الله أتقاهم، ولا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى، فقد بقيت الثقافة الروحية في الشرق حرة طليقة لم تقيد إلا حين قعد الجهل بالناس ففترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب.

(١) الإشارة إلى الشيعة الإمامية.

لم تعرف عصور الازدهار الإسلامى قيذا لفكر ما كان صاحبه برى القصد
يبتغى برأيه سبيل الحق، ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله.

كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق، وبيننا
وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم؟

لا مفر إذا من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى
أطواء ماضيها هذه الحياة الروحية، نحى بها ما فتر من أذهاننا وحمد من
قرائننا وجمد من قلوبنا.

إن التوحيد الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا، قد أورثنا من فضل الله
سلامة فى الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه، وإلى أن
أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليفة أن تضل السبيل، وإلى أن الأمة التى
لا ماضى لها لا مستقبل لها، ومن ثم كانت الهوة التى ازدادت عمقا بين
سواد الأمة فى الشرق والدعوة إلى إغفال ماضيها والتوجه وجهة الغرب
بكل وجودنا، وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب
المعنوية، مع حرصه على نقل علومه وصناعاته، والحياة المعنوية هى قوام
الوجود الإنسانى للأفراد والشعوب، ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى
تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية.. ولم ألبث حين تبينت هذا
الأمر أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية.

فأين هذا من تملك الجمهور أو متابعتة التماسا لرضاه - كما يزعم الذين
يغمزون-!؟

لقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية والروحية، لنتخذها جميعاً هدى ونبراسا، ولكنى أدركت، بعد لأى، أنني أضع البذر فى غير منبتة، فإذا الأرض تهضمه ولا تتمخض عنه، ولا تبعث الحياة.

هذا كلام واضح بىن، ومن عجب أن يخفى على أصحابى فلا يرونه، وأن يكون خفاؤه سبب تزيهم على.

ولكن، لا عجب، فقد خفى هذا الكلام عنى سنوات، كما لا يزال خفيا على كثيرين منهم! (١).

هكذا تحدث هيكى باشا، بهذا الصدق وهذا العمق، عن الانبهار «ببريق حضارة الغرب الذى أنساه - مع عدد كبير من الصفوة والنخبة - ما بيننا وبين الغرب من خلاف عميق فى الحياة الروحية والمعنوية. .» وعن إيابه إلى سبيل إحياء حضارتنا الشرقية، مع استلهام المشترك الإنسانى العام من الحضارة الغربية، متمثلا فى «العلوم والصناعات».

-١٠-

أما النموذج الذى خرج من الشرق ولم يعد! . . والذى تهاهى مع الغرب؛ وانسحق فيه. وتعلق بالحضارة الأوربية - شكلا ومضموناً - . . وأصبح هذا الأنسحاق مذهبه الذى يدعو إليه طول حياته، فهو سلامة موسى [١٣٠٥-١٣٧٧هـ-١٨٨٨-١٩٥٨م] الذى كتب فقال:

(١) [فى منزل الوحى] ص ٢٢-٢٦.

«كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة، توضحت أمامي أغراضى، فهى تتلخص فى أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا، فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له، وشعورى بأنه غريب عنى، وكلما زادت معرفتى بأوروبا، زاد حبى لها وتعلقى بها، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها.

فأنا أزاول حرفة الأدب لكى أدأب فى وعظ أمتى بوجوب كفها عن ممارسة العادات التى اكتسبتها من آسيا، ووجوب اصطناعها عادات أوروبا.

أريد من التعليم أن يكون تعليماً أوروبياً، لا سلطان للدين عليه ولا دخل له فيه، وأريد من الحكومة أن تكون كما هى فى أوروبا، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد [١٤٩-١٩٣هـ-٧٦٦م-٨٠٩م] أو المأمون [١٧٠-٢١٨هـ-٧٨٦-٨٣٣م].

وأريد من الأدب أن يكون أدباً أوروبياً، أبطاله فتيان مصر وفتياتها، لا رجال الدولة العباسية ولا رجال الفتوحات العربية.

ثم أريد أن تكون ثقافتنا أوروبية، أما الثقافة الشرقية فيجب أن نعرفها لكى نتجنبها، لما نرى من آثارها فى الشرق، آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة[!!!].

ولست أجهل أن آسيا قد حكمت مصر نحو ألف عام^(١)، وبسطت عليها حضارتها وثقافتها، بل ودست دمها فى دماء أبنائها، ولكننا نحمد الأقدار-[!!!]- أننا مازلنا فى السحنة والنزعة أوروبيين، إذ نحن أقرب فى

(١) يعنى بأسيا: حقبة إسلام مصر وتعربها.

هيئة الوجه ونزعة الفكر إلى الإنجليزى أو الإيطالى. وكذلك الحال فى سوريا وشمال إفريقيا العربى، فإن سكان هذه الأقطار أوريون سحنة ونزعة. فلماذا إذن لا نصطنع جميعاً الثقافة والحضارة الأوربيتين، ونخلع عنا ما تميمصناه من ثياب آسيا؟!

إننا لسنا شرقيين، وإنما جائنا هذا الاسم من أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية عندما انفصلت من الدولة الرومانية الغربية.

وإن الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض، ولهذا المرض مضاعفات، فنحن لا نكره الغربيين فقط، ولا نتأفف من طغيان حضارتهم فقط، بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية، فندرس كتب العرب، ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب، كما يفعل أدباؤنا المساكين أمثال المازنى [١٣٠٦-١٣٦٨هـ - ١٨٨٩-١٩٤٩م] والرافعى [١٢٩٧-١٣٥٦هـ - ١٨٨٠-١٩٣٧م]، وندرس ابن الرومى [٢٢١-٢٨٣هـ - ٨٣٦-٨٩٦م] ونبحث عن أصل المتنبى [٣٠٢-٣٥٤هـ - ٩١٥-٩٦٥م] ونبحث عن على [٢٣ق.هـ - ٤٠هـ - ٦٠٠-٦٦١م] ومعاوية [٢٠ق.هـ - ٦٠هـ - ٦٠٣-٦٨٠م] ونفاضل بينهما، ونتعصب للجاحظ [١٦٣-٢٥٥هـ - ٧٨٠-٨٦٩م]. ونحاول أن نثبت أن العرب عرفوا الفنون. وكل ذلك إنما يدفعه فى أنفسنا كراهتنا للغرب، وأنفتنا من جهته، واعتقادنا أننا شرقيون من جهة أخرى.

إنه ليس علينا للعرب أى ولاء، وإدمان الدرس لثقافتهم مضیعة للشباب، وبعثرة لقواه، إن العرب أمة قديمة، ونحن أرقى منها، ويجب أن يكون لها أثريون يدرسونها كما يدرسون أشور وبابل.

يجب أن نرتبط بالغرب، ونصطنع ما عند الغربيين من رقص وألحان وموسيقى. أما الشعر العربي، فقد سئمتنا قوافيه الرتيبة التي تشبه دق الطبل عند السودانيين.

وإن اللغة العربية الفصحى هي لغة ميتة - حتى في زمن ظهور القرآن - وإن تعليمها في مصر لا يزال في أيدي الشيوخ الذين ينقعون أدمغتهم نفعاً في الثقافة العربية، أي في ثقافة القرون المظلمة، فلا رجاء لنا بإصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشيوخ منه، ونسلمه للأفندية الذين ساروا شوطاً بعيداً في الثقافة الحديثة. ونحن إنما ننزع للغة العرب القديمة لما تأصل في أذهاننا من ذلك الفرض السخيف، وهو أننا شرقيون، يجب علينا أن نحافظ على كرامة العرب وندافع عن تاريخهم، وهذا الاعتقاد في شريقتنا يجر علينا عدداً من الكوارث قد لا يكون الولاء للغة أهونها.

إن اللغة العربية الفصحى تبعثر وطنيتنا المصرية، وتجعلها شائعة في القومية العربية، فالتعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب، ويُعجب بأبطال بغداد القدماء، فنظره متجه أبداً نحو الشرق، وثقافته كلها عربية شرقية، مع أننا في كثير من الأحيان نحتاج إلى الاتجاه نحو الغرب. وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق.

إننا يجب أن ننظر إلى لغة النابغة [١٨ ق.هـ - ٦٠٤ م] أو المتنبى كما ننظر إلى اللغة الروسية أو الإيطالية، لأنها ليست لغتنا، ولنا نستفيد بدرسها. ونحن نريد العامية لغة الهكسوس، لا الفصحى لغة القرآن والتقاليد العربية.

لقد شرع نابليون [١٧٦٩-١٨٢١ م] يفرس فينا الحضارة الأوربية، ويزيل عنا كابوس الشرق.. وعندنا أفندية قد تفرنجوا، لكن هناك شيوخاً مافونين يعدون

التفرنج رذيلة، مع أنه عين الفضيلة. وإنه ما من أمة تنهض إلا وتنسلخ من قديمها. وكل ما هو باق من القديم سيء، لا يزال يؤذينا، مثل وزارة الأوقاف، والمحاكم الشرعية، والمجالس المليسة والبطركيات العديدة، والأزهر، الذى يشتغل بثقافة قديمة بائدة فى عصر حديث، فهو أداة الثقافة المظلمة، ثقافة القرون الوسطى، ولذلك لا أتردد فى القول بإلغاء الأزهر والاكتفاء بالجامعة المصرية.

وإذا كانت الرابطة الشرقية سخافة، لأنها تقوم على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة شنيعة، فنحن أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتد على الدين جامعة تربطنا.

إننا فى حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان، ويجب أن نفصل الدين عن الدولة، ونلغى تعليمه فى المدارس.

وإن الرابطة الحقيقية التى تربطنا هى رابطنا بأوربا، يجب أن نرتبط بأوربا، وأن يكون رباطنا قوياً، نتزوج من أبنائها وبناتها، ونأخذ عنها كل ما يجد فيها، وننظر للحياة نظرها ونجعل أدبنا يجرى وفق أدبها، بعيداً عن منهج العرب، ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها، ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتهما، ونرسل أولادنا إليها ليتعلموا علومها ويتخلقوا بأخلاقها، فالرابطة الغربية هى الرابطة الطبيعية لنا.

إن الإنسان الأوروبى أرقى إنسان ظهر فى العالم حتى الآن، والأمة الإنجليزية هى أرقى أمة فى العالم، جسماً، وعقلاً، وخلقاً. والحضارة الأوربية -على ما فيها من عيوب- هى آخر درجات التطور الاجتماعى، ومن البلاهة البالغة أن يظن أحد الشيوخ أن حضارة بغداد أو القاهرة

أو الأندلس كانت تبلغ في السمو عشرا أو جزءاً من مائة مما تبلغه الحضارة الأوروبية. الآن، فلنولى وجوهنا شطر أوروبا.

وقد يكون اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب، ويجعلنا أمة واحدة، والقبعة هي رمز الحضارة، يلبسها كل رجل متحضر.. إننا سنبقى في نظر أنفسنا ونظر الأوروبيين شرقيين حتى نتخذ القبعة لرجالنا ونسائنا، ونعلن انسلاخنا من الشرق، ولغرامى بالحضارة الأوروبية أحث بنى وطنى أن يلبسوا القبعة، لأنها تبعث فينا العقلية الأوروبية.

هذا هو مذهبي، الذى أعمل له طول حياتى، سرّاً وجهراً. فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب، وفى كل ما أكتب أحاول أن أغرس فى ذهن القارئ تلك النزعات التى اتسمت بها أوروبا فى العصر الحديث، وأن أجعل قرائى يولّون وجوههم نحو الغرب، ويتصلون من الشرق...»^(١).

هكذا خرج سلامة موسى من الشرق، ولم يعد. فلقد انسحق فى الغرب، الذى كان يحتل وطنه ويقهر شعبه، ويحاول مسخ هويته. وهكذا أعلن سلامة موسى عن مذهبه، فى «صراحة» بلغت حد «الوقاحة» وإن كان للرجل من «فضيلة» فهى الإعلان عن كثير مما يعتقده آخرون، لكنهم يلوذون بالنفاق!.

ويا ليت سلامة موسى كان حياً الآن، ليشهد عودة الشرق إلى هويته الإسلامية.. مع التواصل الصحى مع الغرب -وحضارات الشرق الأخرى- فيما هو مشترك إنسانى عام..

(١) سلامة موسى [اليوم والغد] ص ٥-٧، ٩، ١٧٩، ٣٨، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٠، ١٨٦، ٧٤، ١٧٧-١٧٩، ١٩٤، ٢٠٤، ٢٠٥، ١٨٢، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٠، ٢٠١، ١٧٨، ١٨٩، ٢٠٣، ٣٥-٣٨، ٢٠٥، ٨٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

بل وليشهد دخول الحداثة الغربية فى مأزق.. بعد أن دفعت
المسيحية الغربية إلى نفق مظلم ومغلق!.. وليشهد الليبرالية الغربية
التى دخلت هى الأخرى فى مأزق، بعد أن توحشت على نحو
شديد!..

وباليته كان حيًّا ليقراً ما كتبه مجلة «التحديات CHALLENGES»

- الأسبوعية الفرنسية- عن حاجة الغرب -كى يخرج من أزمته-
إلى الحل الإسلامى- فى الاقتصاد اللاروى- فقالت -إبان زيارة بابا
الفاتيكان لأمريكا-:

«إنه فى حين يمر العالم بأزمة مالية تحتاج جميع معالم النمو فى طريقها،
يجب علينا قراءة القرآن بدل نصوص البابوية.

ولو طبق رجال البنوك الطامعون بالمردود على الأموال الخاصة -ولو
قليلاً- الشريعة الإسلامية، ومبدأها المقدس: «المال لا ينتج المال» فإننا لم نكن
لنصل إلى ما وصلنا إليه...»^(١).

ليت سلامة موسى كان حيًّا ليعاين ما آلت إليه الأمور.. فلربما خلع
قبعته تحية للشرق وحضارته الإسلامية.. أو ربما رمى بقبعته إلى حيث
ألقت أم عمرو حذاءها!

(١) انظر: أكرم بلقعيد [عودة البنوك الإسلامية] -ملحق «لوموندديبلماتيك» النسخة العربية
- توزيع صحيفة «الأخبار» المصرية» فى ١٧-١١-٢٠٠٨م.

على هذا النحو كان التقاء الحضارات وتعارفها . . وهكذا ساد الموقف الوسطى المتوازن فى هذا الالتقاء وهذا التعارف :

- التفاعل والاستلهام فى المشترك الإنسانى العام بين هذه الحضارات..
 - والتمايز فى الخصوصيات التى تختص بها كل حضارة من الحضارات..
- ولقد كان هذا هو الطابع العام عند النماذج التى مثلت تلاقى وتعارف هذه الحضارات . . وحتى الذين بدأت حياتهم الفكرية بالانبهار، الذى أحل بهذا التوازن . . عادوا - فى مراحل نضجهم الفكرى- إلى موقف التوازن والاعتدال . . اللهم إلا ما ندر من الذين انسلخوا عن حضاراتهم وتماهوا فى حضارة الآخرين.

ولم يكن هذا القانون - فى تعارف الحضارات- وقفاً على تعرف الحضارة الإسلامية على غيرها من الحضارات . . وإنما كان قانوناً عاماً . . طبقتة الحضارة الغربية - إبان نهضتها الحديثة، وذلك عندما انفتحت على تراث الحضارة الإسلامية- فى الأندلس . . وصقلية . . وإبان الحروب الصليبية- فتعرفت على تراثها الإغريقى والرومانى من خلال الترجمات والشروح العربية لهذا التراث . . كما حدث عندما أخذت أرسطو [٣٨٤-٣٢٢ ق.م] عن طريق شارحه الأكبر ابن رشد [٥٢٠-٥٩٥هـ-١١٢٦-١١٩٨م] وأخذت كل تراثها اليونانى والرومانى فى العلوم الطبيعية، عن العلماء العرب والمسلمين . .

لكن هذه النهضة الأوربية الحديثة قد أخذت من تراث الإسلام

وتركت - وفق قانون العموم والخصوص - . . أخذت تراثها الإغريقي والرومانى - لأنه الروح المؤسسة لخصوصيات الحضارة الأوربية . . وأخذت الإضافات والإبداعات والمناهج التجريبية التى أضافها المسلمون لهذه العلوم الطبيعية، لأنها من المشترك الإنسانى العام . .

فى ذات الوقت الذى رفضت فيه خصوصيات الحضارة الإسلامية - فى العقائد والشرائع ومنظومة القيم والأخلاق - . . بل لقد تعاملت مع ابن رشد وفق هذا القانون . . فأخذت منه شروحه على أرسطو . . وتركت ابن رشد الفقيه المالكى . . والمبدع فى علم الكلام الإسلامى . . وقاضى قضاة قرطبة . . فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء .

إذن . . هو قانون عام، حكم ويحكم تعدد الحضارات . . والتعارف الصحى الذى قام ويقوم بين هذه الحضارات .

● ولقد جاء فى الهدى النبوى الشريف:

«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن» رواه الترمذى وابن ماجه .

و«الحكمة: الإصابة فى غير النبوة» - البخارى - .

● وقال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل البغدادى [٤٣١-٥١٣هـ - ١٠٤٠-١١١٩م]:

«السياسة: هى التدابير التى يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم ينزل بها وحى أو ينطق بها رسول» .

● وقال الكندى [٢٦٠هـ ٨٧٣م] الفيلسوف:

«خليق بنا ألا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها».

● وقال أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠-٥٩٥هـ-١١٢٦-١١٩٨م]:

«إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك: سواء أكان مشاركا لنا في الملة أو غير مشارك، طالما كان صواباً».

● وقال جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤-١٣١٤هـ-١٨٣٨-١٨٩٧م]:

«إن أبا العلم وأمه هو الدليل.. والحقيقة تلمس حيث يوجد الدليل».
فالحكمة، هى ضالة المؤمن.. يبحث عنها فى أية حضارة من الحضارات..

وهو أحق الناس بها، طالما هى حكمة وصواب..

أما الذين يقفون من الآخر الحضارى موقف «القردة» الراقصين على أنغام الآخرين- بصرف النظر عن طبيعة هذه الأنغام- فإنهم البلهاء..

أو «العوام» الذين قال عنهم الفيلسوف ابن سينا:

«إنهم عوام المتفلسفة، المشغوفين: باليونانيين، الطائنين أن الله لم يهد إلا إياهم، ولم يُنل رحمته سواهم!»

نعم.. إنهم «عوام» أفسد التغريب فطرتهم، التى ظلت صالحة عند جماهير أمة الإسلام.. هم «عوام» وإن حسبوا أنفسهم صفوة ونخبة.. متميزة عن الجماهير!

المصادر والمراجع

- ابن سعد: [الطبقات الكبرى] طبعة دار التحرير- القاهرة.
- ابن النديم: [الفهرست] طبعة بيروت- مصورة-.
- بكر: [وارث ووارث]- بحث منشور بكتاب دكتور عبد الرحمن بدوى
[التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.
- دكتور جابر عصفور: [التنوير يواجه الظلام] طبعة القاهرة سنة
١٩٩٣م.
- الجاحظ: [البيان والتبيين] طبعة بيروت سنة ١٩٦٨م.
- [كتاب الحيوان] تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة.
- الجامعة الأمريكية: [حضارة مصر الحديثة] طبعة القاهرة ١٩٣٣م.
- حسين محمد بافقيه: مجلة [الحج والعمرة]- مكة- عددى محرم
وصفر سنة ١٤٢٦هـ.
- سلامة موسى: [اليوم والغد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.
- دكتورة سيجريد هونكة: [العقيدة والمعرفة] ترجمة: عمر لطفى
العالم. طبعة دمشق- سنة ١٩٨٧م.
- [الله ليس كذلك] ترجمة: دكتور غريب محمد غريب. طبعة
القاهرة سنة ١٩٩٥.

دكتور طه حسين: [مستقبل الثقافة في مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ .
[في الشعر الجاهلي] طبعة القاهرة، سنة ١٩٢٦ .
[الفتنة الكبرى- عثمان] -١- طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢ م.
[من الشاطئ الآخر] ترجمة: عبد الرشيد الصادق المحمودى - طبعة
بيروت سنة ١٩٩٠ م.

الطهطاوى - رفاة -: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: دكتور محمد
عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م. . وطبعة القاهرة سنة ٢٠١٠ م.
على عبد الرازق: [الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م.
دكتور على فهمى خثيم: [الجباثيان أبو على وأبو هاشم] طبعة ليبيا
سنة ١٩٦٨ م.

الماوردي: [الأحكام السلطانية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م.
مجلس النواب المصري: [مضبطة مجلس النواب المصري] سنة ١٩٤٦ م.
دكتور محمد حسين هيكل: [حياة محمد] طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م.
[فى منزل الوحي] طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م.
دكتور محمد الدسوقي: [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] طبعة
القاهرة سنة ١٩٩٢ م.

دكتور محمد ضياء الدين الرئيس: [الخراج والنظم المالية للدولة
الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م.

دكتور محمد عمارة: [الإسلام فى عيون غربية] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٥ م.

[الانتماء الحضارى للغرب أم الإسلام؟] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٨ م.

[الإسلام والسياسة] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٨ م.

[معركة الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م.

[الإسلام بين التنوير والتزوير] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥ م.

نلينو: [محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية] - بحث منشور ضمن كتاب دكتور عبد الرحمن بدوى [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.

وزارة الإرشاد القومى - مصر -: [لجنة مشروع الدستور] طبعة القاهرة - بدون تاريخ .

موسوعات:

[الموسوعة العربية] - طبعة دمشق - سنة ٢٠٠٢ م.

دوريات:

السياسة - القاهرة .

الأهرام - القاهرة .

رسالة الإسلام - القاهرة .

obeikandi.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
فاتحة	٣
تمهيد - فى الرؤفة الإسلامية	٥
١- فى عصر صدر الإسلام	
- التعرف بين الحضارة الإسلامية والحضارات الرومانية	
والفارسية	٨
٢- التعرف على علوم اليونان	١٢
٣- لماذا ترجم المسلمون الفلسفة اليونانية؟	١٤
٤- التعرف مع الحضارة الهندية	١٦
٥- الموقف النقدى لموارث الحضارات القديمة	١٨
٦- الطهطاوى والموقف المتوازن من الحضارة الأوربية	٢٥
٧- على عبد الرازق ومراجعات علمنة الإسلام	٣٤
٨- طه حسين والإياب من التغريب إلى الإسلام	٤٠
٩- هيكل باشا والعودة عن التغريب .. والفرعونية ..	
إلى الإسلام	٥٠
١٠- سلامة موسى والانسحاق فى النموذج الأوربى	٥٧
المصادر والمراجع	٦٧
الفهرس	٧١